سومرست موم

الساحرُ الجبّار



دار القلم
بيروت - لبنان

الساحر الجبار

الطبعة الاولى
آذار ــ مارس ١٩٧٥
الطبعــة الثانية
تموز ــ يوليه ــ ١٩٧٧

سومرست موم

الساحر الجبار

دار القلم
بيروت - لبنان

مؤلف الرواية

وليم سومرست موم ، الكاتب الروائي المعاصر ، اشتهر بكثرة انتاجه، وانتشار مؤلفاته التي لا تقل عددها عن ستين مؤلفا ما بين روايات ومسرحيات ، وقصص ، وكتب سياسية ، ويمتاز بأنه كاتب واقعي ، يستمد قصصه من الحياة ، ومن اختلاطه بالناس في أسفاره العديدة . وهو يكره الحواشي والاوصاف ، ويعمد الى الوقائع مباشرة ، يمزج الحقيقة بالخيال ، مزج كاتب خبير بفن القصص ، عليم بطبائع النفوس ميال الى السخرية .

ولد سنة ١٨٧٤ وتعلم في « مدرسة الملك » بكانتربري ، ورحل في نشأته الى باريس فتعلم اللغة الفرنسية واتقنها ، ثم عاد يدرس في انجلترا ، وبعدئذ انتقل الى جامعة هيدلبرج بألمانيا ، ثم سافر الى ايطاليا وتعلم اللغة الايطالية بمدينة فلورنس • وهكذا جمع في سني شبابه محصولا وافرا من المعارف والمعلومات وأتقن عدة لغات . وقد ألف أول رواية بعنوان « ليزا أف لمبث » حين كان طالب طب في الثالثة والعشرين من عمره ، واستمد موضوعها من ملاحظاته عندما كان يتدرب في احدى المستشفيات بلندن ، حيث عرف الفقر ووقف على ظروف الفقراء .

ومع أنه درس الطب ، لم تجذبه هذه المهنة ، كما لم تعجبه مهنة المحاماة من قبل ، ومال الى الادب وحده ، خصوصا بعد أن نجحت روايته الاولى نجاحا رائعا ، وعدت من بدائع القصص الواقعي . وكان أبوه وجده محاميين ، وقد وصل أخوه اللورد موم الى منصب وزير مالية بريطانيا ، ولكن وليم سومرست آثر الادب على كل منصب ، وكل مهنة اخرى .

وبعد نجاح روايته الاولى شرع يؤلف للمسرح ، غير أن مديري المسارح رفضوا رواياته الهزلية التي قدمها ، حتى كاد ييأس من النجاح في هذا المجال ، واذا برواية هزلية تدعى «اللادي فردريك» يقبلها احدالمسارح فتنجح نجاحا منقطع النظير . وتدور حوادثها حول شاب وقع في غرام حسناء اكبر منه سنا . ثم تلتها هزليات أخرى ، فيها نقد للمجتمع وقد نجحت كلها كذلك .

*

وعندما نشئت الحرب الاولى عام ١٩١٤ التحق بالخدمة الطبية العسكرية في فرنسا ثم نقل الى قلم المخابرات البريطانية في انجلترا . وقد تأثرت صحته من العمل المتواصل فسافر الى جزر الجنوب مارا بأمريكا ، ووجد في تلك الجزر الهدوء الذي ينشده ، وعاد بملاحظات وذكريات أعانته في تأليف روايته « القمر وستة بنسات » .

ولكنه أوفد قبل ان يتم تلك الرواية في بعثة دبلوماسية الى روسيا وهناك عاوده المرض ، ورجع الى انجلترا مريضا بذات الرئة ، فدخل مصحا أمضى فيه عدة أشهر حتى عوفي من دائه . وسرعان ما حفزه حب السفر الى أن يبحر الى الصين ، وقد عاد منها بكتاب جديد .. وهكذا ظل على سفر دائم ، يستمد منه موضوعات لقصص ، ينشرها بالمجلات الانجليزية والامريكية أو يؤلف منها كتبا وروايات .

وقبل نشوب الحرب العظمى الاخيرة كان قد استقر في « فيلا » سماها « بورسك » عند راس فرات بالقرب من مدينة نيس . ولكن الالمان احتلوا فرنسا في عام ١٩٤٠ فاضطر الى الفرار على ظهر باخرة فحم حتى وصل الى انجلترا ، ثم لجأ الى أمريكا حيث استقر في مزرعة بولاية كارولينا الجنوبية ، وهناك عاد الى تأليف الكتب والروايات والقصص . وقد أقبل الامريكيون على رواياته يخرجون منها أفلاما ، فلقيت هذه الافلام نجاحا عظيما حيثما عرضت في أمريكا وفي غيرها من البلدان .

شخصيات الرواية

- □ آرثر بردون (Arthur Burdon) : جراح انجليزي شاب
- □ مرجريت دونسي (Margaret Dauncy) : خطيبة آرثر بردون
- □ الدكتور بورهيت (Dr. Porhaët) : طبيب فرنسي مشهور
- □ سوزي بويد (Susie Boyd) : صديقة مرجريت الحميمة
- □ أوليفر هادو (Oliver Haddo) : ثري انجليزي من هواة أبحاث علوم ما وراء الطبيعة
- □ المسز سميثر (Mrs. Smither) : صاحبة فندق جيفر ببلدة فيننج
- □ الدكتور ريتشاردسن (Dr. Richardson) : الطبيب المقيم ببلدة فيننج
- □ الدكتور أربثنوت (Dr. Arbuthnot) : طبيب عيون

الفصل الاول

مشتغل بالسحر

سار آرثر بردون والدكتور بورهيت في صمت . لقد تناولا طعام الغداء في مطعم صغير انيق بشارع سانت ميشيل ـ بباريس ـ واخذا الآن يتمشيان في حدائق لوكسمبرج . وكان الدكتور بورهيت يسير محني الكتفين ، عاقدا يديه وراء ظهره . وكان يرى المناظر حوله بعين عدد كبير من الرسامين الذين وجدوا في هذه الحدائق الباريسية الرائعة مجالا واسعا للتعبير عن الجمال . جمال الطبيعة المجسم في أرض خضراء مفروشة بأوراق الشجر المتناثر ، وفي اشجار مختلفة الاشكال والاحجام ، وفي زهور كمهرجان من الاضواء والظلال ، وفي ممرات وجبلايات عرف الانسان كيف يشذبها ويجعلها طبيعية المنظر .

وجمع الدكتور بورهيت أطراف ردائه حوله كأنما يحس بقشعريرة برد رغم فصل الصيف . ذلك أنه أنفق الجانب الاكبر من عمره في الاقليم المصري ، حيث الشمس الجميلة والدفء على مدار العام ، وحيث كان يمارس مهنة الطب هناك . فلا عجب اذا كان صيف أوروبا « البارد » لا يبعث الدفء في عظامه . وان ذاكرته لترتد برهة الى مدينة الاسكندرية الجميلة الرائعة الجو على مدار العام ، ثم اذا هي ، أي ذاكرته ، ترتد عائدة الى أرض الوطن ، الى مقاطعة بريتانيا في شمالي فرنسا ، حيث الغابات الخضراء والشواطىء المعرضة للعواصف والاعاصير . وفجاة امتلات عيناه بأطيافِ من الاسى ، ثم قال :

ـ هلم ننتظر هنا برهة .

وجلسا على مقعدين من الخيزران ، بالقرب من نافورة تمثال يرمز لاله الحب . وبدأ الدكتور بورهيت الحديث باللغة الانجليزية التي كان يتقنها ، فقال لصاحبه ، وهو يستدير نحوه :

ـ وكيف حال مرجريت ؟

وأشرق وجه آرثر بابتسامة عذبة وهو يجيب قائلا :

ـ أوه ، أعتقد انها على خير ما ينبغي ، رأيتها اليوم ، ولكنني سأتناول الشاي في مرسمها بعد الظهر ، ونحن نرجو أن تتناول معنا العشاء في مطعم شيان نوار .

ـ ليس احب الي من هذا ، ولكن الا تفضلان أن تنفردا معـا في السهرة ؟

ـ لقد قابلتني أمس بالمحطة ، وتعشينا معا ، وتحدثنا بلا انقطـاع من الساعة السابعة حتى منتصف الليل .

فابتسم الدكتور بورهيت ، وقال ؟

ـ او على الاصح تحدثت هي وأنصت أنت بقلب العاشق السعيد .

وكان آرثر بردون قد وصل الى باريس في اليوم السابق . وهو في وطنه انجلترا ، يعمل طبيبا جراحا بمستشفى سانت ليوك ، وكان الهدف الظاهري من زيارته لفرنسا ، الاطلاع على أحداث أساليب الجراحة الفرنسية. أما الغرض الاساسي من هذه الزيارة فهو رؤية حبيبته ، وخطيبته ، مرجريت دونسي . وكان يحمل خطابـات توصية وتزكية من كبـار الجراحين في انجلترا ، ومن ثم استطاع في صباح اليوم التالي من وصوله ، أي في هذا الصباح ، أن يقضي بضع ساعات يشاهد الدكتور بورهيت الجراح الفرنسي الكبير ، وهو يجري عمليات بمستشفى « اوتيل ديو » . وقد أعجـب

الجراح الشاب ببراعة صديقه الجراح العجوز وبقوة أعصابه ، وثبات يده . وفي أثناء طعام الغداء ، لم يكن لهما حديث غير العمليات الجراحية ، وقد سرد الجراح العجوز على صاحبه الشاب طرفا من معجزات الجراحة التي قام بها الجراحون في مصر أمامه .

كان الدكتور بورهيت يعرف الشاب آرثر بردون منذ طفولته ، عندما عاش بضع سنوات مع والده التاجر الانجليزي بالاسكندرية . وكان والد آرثر صديقا حميما لبورهيت ، وقد ابتهج هذا عندما عمل صديقه بنصيحته، وأعد ابنه آرثر ليكون طبيبا جراحا . وبلغ ابتهاجه الذروة ، عندما تخرج آرثر في كلية الطب الملكية بلندن ثم لم يلبث غير قليل حتى نال في بلاده من المكانة ما لم ينله هو في وطنه رغم سنواته الخمس والخمسين .

وكان يعرف ان نجاح صديقه الشاب في الجراحة يرجع الى تخصصه فيها وقصر اهتمامه عليها ، وتكريس حياته في سبيلها . واذا كان هذا كله يجعله ضيق الافق في مجالات أخرى كثيرة ، كالآداب والفنون ، فانه ـــ من ناحية أخرى ـــ يزوده بهذه القوة التي يتمتع بها كل انسان يركز جهوده وأفكاره في ناحية معينة ، دون أن يبعثرها في نواح مختلفة .

لقد رآه الدكتور بورهيت كثيرا ، وهو يجري عملياته الجراحية ، وكان مجرد رؤيته متعة تفعم قلب كل جراح بالنشوة والسرور. فهذا الشاب الهادىء الضيق الافق ، القليل الكلام في المجتمعات، يتحول الى عملاق في غرفة العمليات . ان كل شيء يتغير فيه عندئذ : تعبيرات وجهه ، ونظرات عينيه ، وحركات يديه . انه يصبح شخصا اخر مفعم النفس بالنشوة والثقة والايمان ، شخصا لا يضطرب ولا يرتبك أمام أي حدث مفاجىء اثناء العملية . كان يبدو عليه انه يتمتع بغريزة قوية للعمليات الجراحية ، وأن عقله ويده يعملان معا في نسق عجيب كأنما تسيطر عليهما آلة تتحكم في التوقيت والحركة . ولم يحدث أبدا ان شعر بالتردد أو بالخوف من الفشل ،

ولم يكن نجاحه بأقل روعة من شجاعته . وكان من الواضح انه لن يلبث غير قليل حتى يبلغ ذروة الشهرة بين الجماهير .

وعاد الدكتور بورهيت يقول لارثر بردون ، وهو يبتسم في رفق :

ـ انني مندهش باستمرار من مفاجآت الطبيعة البشرية . فأنا مثلا شديد الدهشة حين أرى شابا مثلك يغرق حتى أذنيه في حب فتاة مثل مرجريت دونسي !

ولماذا لم يجب آرثر ،خشي بورهيت ان يكون قد أستاء من كلماته ، فأسرع يقول مفسرا :

ـ انك تعرف ، كما أعرف ، أنني أراها فتاة جذابة ، تجمع بين الجمال والرشاقة ورقة المشاعر . ولكن طباعكما تختلف اختلافا بينا . فرغم مولدك في مصر ، ورغم طفولتك التي قضيتها على ضفاف النيل حيث تتراقص الاطياف المجسمة من ألف ليلة وليلة ، فأني اراك أكثر من عرفت في حياتي واقعية وبعدا عن الخيالات والاحلام .

فأبتسم آرثر ، وقال :

ـ انني فعلا أعترف بهذا ، وبأكثر منه ، أعترف انني رجل عادي واقعي ضيق الافق لا أرى أبعد من أنفي ، وهو لحسن الحظ طويل بعض الشيء .

ـ ان من مبادئي التي أومن بها أن الانسان لا يستطيع ان يحب حقا ما لم يكن واسع الخيال .

ومرة أخرى لم يجب آرثر ، وانما راح ينظر أمامه وقد تألقت عيناه بنظرات حالمة نشوى كأنما يرى أمامه أطيافا من جمال لا سبيل الى التعبير عنه .

وعاد الدكتور بورهيت يقول :

ــ ولكن مرجريت ليس فيها ضيق الافق الذي اعتقد أنه سر قوتك في عملك ، وأرجو المعذرة عن هذا التعبير . انها شديدة الحماس لكل ما يمت الى الفن بصلة . ان الجمال لا يقل أهمية في حياتها عن الطعام والشراب للرجل العادي . وهي عدا هذا شديدة الاهتمام بقيم الجمال في الحياة .

فأجاب آرثر قائلا بهدوء :

ــ ان من حق مرجريت أن تهتم بالجمال ، لان الجمال يتجسم في كل جزء من كيانها .

وكان آرثر اكثر محافظة من ان يستطرد في التعبير عن عواطفه . ولكنه كان يعرف ان اول ما اشعل نار الحب في قلبه هو روعة اكتمال جسمها ومطابقته الدقيقة لمقاييس الجمال الملهم ، وقد ضاعف احساسه بهذه الناحية كثرة ما رأى من ألوان التشويه في الاجسام البشرية اثناء عمله كطبيب جراح ، ولكنه لم يستطع ان يملك نفسه من مصارحة صديقه العجوز بهذه العبارة التي لاح أنها خرجت من شفتيه رغما عنه :

ــ أني حين رأيتها أول مرة ، أحسست كأن عالما جديدا قد انفتح في حياتي .

وخيل الى الدكتور بورهيت أنه يسمع في هذه العبارات رنين أشعار الشاعر كيتس ، وأنه يرى في حماسة الالقاء مأساة ينطوي عليها المستقبل . ولكنه لم يلبث ان راح يطرد هذا الضباب الذي أراد خياله ان يلقي به على أجمل قصة حب ، فقال :

ــ انك في الواقع سعيد محظوظ يا صديقي . فان المس مرجريت مفتونة بك ، بقدر ما انت مفتون بها . فهي لا تسأم أبدا من الانصات الى أحاديثي عن طفولتك بالاسكندرية ، واني واثق تماما أنها ستكون لك الزوجة التي تسعد أيام حياتك .

فضحك آرثر ، وقال :

ـ اني أكثر منك ايمانا بهذا .

وكان يرى أنه رجل سعيد حقا . فهو يحب مرجريت حبا يملك عليه كل مشاعره واحساسه ، وانه لموافق انها شديدة الحب له والاعجاب به . ومن ثم كان يرى أن من المستحيل أن تقوم عقبة تقف في طريق السعادة التي يحلمان بها في الحياة معا . لقد كان حبه يضفي على عمله لونـــا من الاشراق والبهاء ، وكان عمله ، من ناحية أخرى ، يزيد من روعة حبـــه وجمالــه .

وفجأة التفت الى صديقه الكهل ، وقال :

ـ اننا الان على وشك تحديد يوم الزواج . وقد بدأت في شراء الاثاثات والمفروشات لبيت الزوجية .

ـ الواقع أنكم يا معشر الانجليز تتصرفون تصرفات غريبة في مسائل الزواج . فانا مثلا لا أجد سببا يجعلك تؤجل زواجك بها عامين .

ـ كانت مرجريت ، كما تعلم ، في العاشرة من عمرها عندما عرفتها ، وفي السابعة عشرة من العمر عندما خطبتها . وقد كان لديها من الاسباب ما جعلها تشعر بجميلي عليها ، وبالموافقة على عقد الزواج فورا ، ولكنني كنت أعرف أنها طالمــا اعتزمت قضــاء هذين العامين في باريس لدراسة فن الرســم والاستمتاع بالحياة خارج الوطن فترة ما . فقد رأيت أنه ليس من اللياقة في شيء أن أربطها الي قبل ان تحقق أمنيتها . وعدا هذا فقد كانت لا تزال في دور النمو ، وسن الســابعة عشرة ليســت بالسن المناسبـــة للزواج عــادة .

فابتسم الدكتور بورهيت ، وقال :

ــ ألم أقل انك انسان واقعي اكثر مما يجب !

ــ وكذلك أعتقد اننا على تفاهم تام في كل ما يتعلق بمسألة الزواج . فكلانا شديد الاهتمام بهذا الامر ، والسنوات أمامنا ممتدة وفي مقدورنا أن ننتظر هذين العامين .

وفي تلك اللحظة سار أمامهما شاب ضخم الجسم . يرتدي بذلة زاهية اللون ، وقد رفع قبعته في وقار تحية للدكتور بورهيت الذي رد عليه التحية باسما .

وتساءل آرثر قائلا :

ــ من صاحبك البدين هذا ؟

ــ انه أحد مواطنيك ، يدعى أوليفر هادو .

وعاد آرثر يسأل بلهجة الرجل الذي يحتقر اي عمل ليس ايجابيا واقعيا كعمله :

ــ أهو يدرس الرسم هنا ؟

ــ لا أظن ذلك بالضبط . فقد التقيت به منذ عهد قريب مصادفة . كنت أجمع المواد اللازمة لكتابي الصغير عن علماء الكيمياء القديمة ، وقد قرأت الشيء الكثير عن هذا الموضوع في مكتبة الارزينال الغنية بكل ما يتعلق بعلوم ما وراء الطبيعة .

وارتسمت أمارات الاستخفاف على وجه آرثر بردون ، لانه لم يكن يدري لماذا يشغل رجل نابغ في الجراحة مثل بورهيت نفسه بتأليف كتاب عن علماء الكيمياء القديمة . حقا كان كتابه مفعما بالمعلومات والآراء العميقة، الا أن الوقت الذي ضيعه فيه كان أجدر أن ينفعه في عمله كجراح .

وعاد الدكتور بورهيت يقول :

ـ لم يكن عدد المترددين على المكتبة من الباحثين كثيرا ، لذلك عرفت بعضا من اللذين تعودوا التردد عليها بأنتظام . وكنت أرى ذلك الشاب يستغرق في قراءة الكتب والمحفوظات القديمة منذ حضوره في الصباح حتى انصرافه في المساء . واحيانا كنت أجده يقرأ في المجلدات التي اطلبها لنفسي ، ومن ثم اكتشفت انه يدرس نفس المواد التي كنت مهتما بها . ورغم أن مظهره يلفت النظر ، الا أنه لا يثير الرغبة في التعرف به أيضا ، ولهذا تجاهلت محاولاته التي كان يبذلها للتعرف بي في مبدأ الامر . ولكن حدث ذات يوم اني كنت أحاول ـ عبثا ـ البحث عن مرجع للتوسع في تفسير نقطة في موضوع معين ، ولم يستطيع أمين المكتبة أن يساعدني في ذكر المراجع اللازمة ، ويبدو أن هذا الشاب سمع حديثي مع أمين المكتبة ، فتقدم مني وكتب لي اسماء اكثر من عشرين مرجعا في هذا الموضوع . وبطبيعة الحال شكرته في اعجاب وتقدير ، ولما تبادلت معه الحديث وجدت أنه واسع الاطلاع جدا في الكيمياء القديمة ، وعلوم ما وراء الطبيعة وفنون السحر الاسود ، وكان يفوقني باتقانه لغات شرقية مثل العربية والعبرية . ومن ثم كان في مقدوره أن يقرأ كتاب « السحر » في أصله العبري .

فهز آرثر كتفيه استخفافا ، وقال :

ـ وما هي مهنته ؟

فابتسم بورهيت في اشفاق ، ثم قال :

ـ انني أخشى أن اقول لك حتى أتجنب نظرات اشمئزازك واحتقارك .

ـ لماذا ؟

ـ ان باريس كما تعلم مليئة بمختلف الشخصيات الشاذة والعادية ، ومع

ذلك ، فانه ليبدو لي عجيبا غريبا أن شابا مثل اوليفر هادو هذا يشتغل ساحرا في عصرنا الحديث , وأعتقد انه يقول هذا جادا .

فقال آرثر مؤكدا :

ـ يا له من حمار احمق .

الفصل الثاني

حديث عن الحب

كانت مرجريت دونسي تقيم مع صديقتها ومدرستها السابقة سوزي بويد في مسكن أنيق صغير ، نصفه للنـــوم ، ونصفه للرسم في حـــي مونبارناس . وكان آرثر قد اتفق ان يقابلها في المرسم ليشرب معها هي وصديقتها الشاي بعد الظهر . وهكذا جلست الفتاتان وأمامهما الفناجين واطباق الكعك والحلوى على منضد صغير وابريق الشاي يغلي على الموقد . وكانت سوزي متلهفة على رؤية آرثر ، لانها سمعت من مرجريت الشـــيء الكثير عنه كما كانت تعرف وشائح الحب العميق الذي يربط بين قلبيهما ، وكانت سوزي قد أمضت أعواما عديدة تشتغل بالتدريس في مدارس البنات الثانوية ، وكانت قد استسلمت لهذه الحقيقة ، وهي انها ستبقى طيلة حياتها في الاشتغال بالتدريس دون أن تتاح لها فرصة الحب والزواج ! ولكــن حدث أنها ورثت عن احد أقربائها ثروة متوسطة تدر عليها دخلا سنويا لا بأس به ، فاستقالت من عملها ، وقررت ان تستمتع بمباهج الحيـــاة . ولــم تتردد بطبيعة الحال في مصاحبة مرجريت لقضاء عامين في باريس حــين طلبت اليها هذا ، لانها تحبها منذ أن كانت تلميذتها في المرحلة الثانوية ، ولانها أرادت ايضا أن تدرس فن الرسم رغم ادراكها التام بأنها لا تتمتع بأية موهبة في هذا الميدان .

كان حبها العظيم لمرجريت يدفعها لان تشاركها الاستمتاع بكل سعادة تضيء حياة الفتاة الجميلة اللطيفة . انها لم تشعر ابدا بالغيرة منها يوما ،

وكأنما هي أم حانية رزينة تستمد بهجتها من بهجة ابنتها الوحيدة التي تعيش في الحياة من أجلها . وليس أدل على هذا من انها كانت تحرص دائما على أن تجعل مرجريت تبدو أنيقة رشيقة مرتدية اخر طراز من الملابس والقبعات ، وكانت مرجريت تميل بطبيعتها المنطلقة واحساسها الفني الى التحرر من قيود « المودة » والاناقة المصنوعة ، ولكن سوزي كانت تقف لها بالمرصاد وترغمها على أن تبدو أشد ما تكون أناقة وجمالا . وقد حدث ان أعجب آرثر ذات مرة بأناقتها وحسن ذوقها في اختيار ملابسها ، فصارحته ان الفضل في هذا المرجع الى صديقتها الحميمة سوزي . ولما حدثت مرجريت صديقتها بهذا ، تضاعف حب سوزي لها . اذ ليس من طبيعة المرأة عادة أن ترجع الفضل في أناقتها لصديقة لها وانما يحدث عادة ، ان ترجع الفضل في أناقتها ، بل وأناقة صديقاتها اليها هي نفسها .

وقد وقفت سوزي من أحاديث مرجريت عن آرثر بردون ، ومن بعض فقرات خطاباتها التي كانت تقرؤها عليها ، وقفت على مدى حب الشاب لخطيبته . وكانت تشعر بالبهجة وهي ترى كيف تقابل مرجريت هذا الحب العميق بمثله . وكانت قصة قضاء مرجريت لهذين العامين في باريس تثير خيالها وتسعد وجدانها . ذلك أن مرجريت كانت ابنة محام انجليزي بالريف ، وكثيرا ما نزل آرثر بردون ضيفا عليه . ولما مات هذا المحامي بعد سنوات من وفاة زوجته وجد آرثر نفسه الوصي الوحيد على مرجريت بناء على وصية أبيها وكانت في الرابعة عشرة من عمرها حينئذ . وقام آرثر بواجبه عندئذ ، وأتاح لها فرصة اتمام تعليمها الثانوي ، وحرص على أن يوفر كل رغباتها ومطالبها ، ولما بلغت السابعة عشرة ، أعربت له عن رغبتها في الذهاب الى باريس لدراسة فن الرسم مدة عامين ، ووافق هو فورا ، ولكنه اقترح أن تصحب معها احدى صديقاتها حتى لاتعيش وحيدة في باريس . واستقر الرأي على ان تصحب سوزي . وما أن اتمت الاستعدادات للرحلة حتى اكتشفت مرجريت مصادفة ، أن أباها مات مفلسا ، وانها عاشت

بعده على نفقة آرثر بردون الذي لم يحاول يوما ــ رغم اسرافه في الكرم معها ــ أن يشعرها بأنه ينفق عليها من ماله الخاص . فلما صارحته بهـــذه الحقيقة والدموع تملأ عينيها ، بدا الارتباك عليه ولم يعرف ماذا يقول ، فقالت هي :

ــ ولكن لماذا فعلت كل هذا من أجلي دون أن تخبرني بالحقيقة من اول يوم ؟

ــ لانني لم أرغب في ان اشعرك بأي فضل لي عليك حتى تكون لك حرية الاختيار فيما سأعرضه عليك بعد ذلك .

ولم يسعها الا أن تنخرط في البكاء ، فضحك هو ، وقال :

ــ لا تكوني بلهاء . انني لا أدينك بشيء مطلقا . وأنا لم أقدم اليك الا القليل ، والواقع أني كنت استمد من خدماتي لك كل سعادة وابتهاج .

ــ انني لا أدري كيف أرد لك كل هذا الجميل .

ــ أوه . لاتقولي هذا ! انك سوف تجعلين من العسير علي ان اقول لك ما كنت أريد أن أقول .

فنظرت اليه بسرعة ، واضطرم وجهها احمرارا ، بينما كانت عيناهـــا الزرقاوان تختفيان تحت غلالة رقيقة من الدموع . وأخيرا هتفت قائلة :

ــ ألا تعلم أني على استعداد لان أفعل أي شيء ممكن من أجلك ؟

ــ انني لا أريد منك أن تشعري بفضلي عليك ، لاني أرجو .. أن أعرض عليك الزواج يوما .

فضحكت مرجريت في ابتهاج شديد ، وقالت ، وهي تمسك بيديه :

ــ أتعرف أني كنت أتمنى أن تعرض هذا علي منذ كنت في العاشرة من

عمري ، أي منذ أن رأيتك أول مرة ؟

وكانت على استعداد تام لان تتراجع عن رغبتها في قضاء عامين بباريس لكي يتم زواجها به فورا . ولكن آرثر أصر على أن تحقق أمنيتها ، بيد انها عادت تقول ان هذا قد أصبح مستحيلا ، لانها لم تعد تملك قرشا تسافر به . وأنها لا تستطيع أن تثقل على حبيبها بالمزيد من النفقات .

فقال لها :

ـ لماذا ؟ ألست الآن خطيبتي ؟ هل تعتقدين ان نفقاتك في باريس ستثقل علي ؟ انت تعرفين أنني ورثت عن أبي ثروة لا بأس بها ، كما أن أرباحي من عملي تزيد يوما بعد يوم .

ـ ولكن ...

ـ لا مجال لهذه الكلفة الان . فلو انني مت غدا لاصبحت الوارثة الوحيدة لكل أموالي . وسوف تتزوج خلال عامين ، وكل منا يعرف الاخر تمام المعرفة سنوات عديدة ، وليس هناك احتمال لان يغير أحدنا رأيه في هذا الموضوع . وهذا يعني أننا مرتبطان فعلا بأشد الوشائج .

وكانت مرجريت تهفو حقا لقضاء هذين العامين في باريس وقد أكد لها آرثر أن من حقها أن يدع لها فرصة الاستمتاع بالحياة قبل الارتباط بالزواج ، وأنه من الخير لكليهما أن يتم الزواج عند بلوغها التاسعة عشرة . ولما استشارت صديقتها سوزي بويد في هذا الامر ، قالت لها :

ـ ان الفرق بين موقفك الان ، وموقفك بعد الزواج ، هو توقيع اسمك واسمه على وثيقة الزواج . وطالما أنه ليس هناك أي احتمال ولو بسيط ، في أن يغير أحدكما رأيه ، فانك في حكم زوجته الان فلماذا لا تقبلين أن ينفق عليك خلال هذه المدة ؟ ثم لا تنس أنك لا تصلحين للقيام بأي عمل لكسب المال . كالاشغال بالآلة الكاتبة أو العمل كمديرة بيت أو مربية ، وعلى

هذا يحسن أن تتخلصي من كبريائك وتقبلي ما يعرضه عليك .

وتصادف ان سوزي بويد لم تستطع رؤية آثر بردون أبدا . ولكنها أصبحت ــ لكثرة ما سمعت عنه من مرجريت ــ تنظر اليه كصديق حميم . وكانت شديدة الاعجاب بموهبته كجراح ، وبقوة أخلاقه ،وبرقة عواطفه ومشاعره نحو مرجريت ، وكانت قد رأت صورة « فوتوغرافية » له ، لكن مرجريت قالت أنه اجمل من صوره بعض الشيء . فلما سألتها :

ــ هل هو جميل ووسيم ؟

قالت مرجريت :

ــ لا . لا أعتقد ، ولكنه يصلح لأن يرسم بالالوان الزيتية .

فابتسمت سوزي ، وقالت :

ــ هذه اجابة من النوع الذي يبدو فيه الحديث جميلا ولكن بلا معنى !

وكانت سوزي تعتقد أن شغف مرجريت بالفن سوف يتلاشى بعد أن تصبح زوجة وأما . ولا شك أن أمومتها لعدد من الاطفال أفضل لها من كل فنون العالم . ذلك أن سوزي كانت تعلم أن عبارات الثناء والمديح التي تسمعها بافراط على أعمالها الفنية ، لا ترجع في الواقع الى أنها موهوبة ، وانما الى أنها جميلة جذابة ! فلو انها كانت مثلها ، عاديـة في الثلاثين من العمر ، لما سمعت عبارة اعجاب واحدة من اساتذة الرسم .

وكانت سوزي فيالواقع محرومة من الجمال ، ومن نضرة الشباب بعد أن بلغت العام الثلاثين من عمرها ، ولكنها كانت تعرف كيف تعوض هذا بالاناقة والذوق السليـم ، والابتسامة الحلوة ، والعبـارات المهذبة ، فضلا عن روحها الطيبة .

وسمعت الاثنتان نقرا على باب المرسم ، ثم دخل آرثر بردون ، وقالت

مرجريت وهي تقدمه لصديقتها :

ــ هذا هو أمير أحلامي .

وابتسم هو مصافحا اليد المبسوطة اليه :

ــ انني سعيد يا مس بويد اذ أستطيع الان أن أشكر لك كل ما أسديته الى مرجريت من خدمات .

ولاحظت سوزي أنه ينظر اليها في مودة ، ولكن نظراته كانت جوفاء بعض الشيء كأنما بلغ استغرابه في رؤية حبيبته حدا جعله لا يكاد يرى أحدا غيرها ، ولم تدر كيف يمكن أن تتبادل الحديث مع رجل مستغرق في الحب الى هذا الحد . ذلك أن نظراته لم تكن لتتحول ، لحظة واحدة ، عن حبيبته التي شغلت نفسها باعداد الشاي وكانت هذه النظرات تنتقل من وجهها الباسم ، الى يديها ، ثم تعود الى عينيها ، ثم الى شفتيها ، وكان يبدو عليه أنه لم ير في حياته مخلوقة لها كل هذا البهاء والجمال . وحدث أنها أحست بنظراته اليها ، فاستدارت ، وتبادلت معه نظرة طويلة في صمت مما جعل سوزي تضحك قائلة في مرح :

ــ لا تتصرفا هكذا كعاشقين أبلهين ، هلم الى الشاي ، فأني أكاد أموت جوعا .

وضحك العاشقان في خجل وارتباك ، ورأى ارثر ان واجبه يحتم عليه أن يقول شيئا على سبيل المجاملة ، فقال لسوزي :

ــ أرجو أن أرى بعض رسوماتك الفنية يا مس بويد ، فقد قالت لي مرجريت انك موهوبة رائعة .

فأجابته بصراحة :

ــ لا داعي لان تظهر لي اهتماما خاصا ، فأنا أعرف أن مرجريت هي كل

شيء في حياتك . اطمئن من هذه الناحية .
وقالت مرجريت :

ــ انها بارعة في الرسم الهزلي . وأعتقد انها سترسم لك صورة هزلية بمجرد انصرافك من عندنا .

ــ ما هذه الحماقة يا مرجريت ؟

قالتها سوزي وهي تدرك في أعماقها أن وجه آرثر بردون أصلح ما يكون للرسم الهزلي . فرغم جبينه العريض ، وعينيه الزرقاوين فقد كانت بشرته باهتة ، وفمه كبيرا ، وانفه طويلا . ولكن أجمل ما فيه هذه السمات التي تدل على قوة الشخصية ، ونبل العاطفة والقدرة الهائلة على احتمال الشدائد والآلام .

وقالت مرجريت :

ــ لقد أعددت الشاي .

ولما نهض آرثر ليتلقى الفنجان منها ، قالت له :

ــ استرح ! لسوف أقدم اليك كل ما تحتاجه ، وأنا أعرف تماما حاجتك من السكر ، وليس أحب الي من القيام على خدمتك .
وبدا لسوزي أنه غرق في فيض من الحب والنشوة والاعتراف بالجميل وهو يتابع بنظراته حركاتها الرشيقة وايماءاتها الفاتنة وبسماتها العذبة ، وهي تقوم على خدمته وكأنها احدى جاريات الف ليلة وليلة !

ولم يسع سوزي الا أن تشعر ، رغما عنها ، بالامل في أن تجد ذات يوم الرجل الذي يحبها والذي يتيح لها الفرصة لان تقوم على خدمته . ذلك أنها كانت ترى نفسها ، رغم كل شيء ، أصلح ما تكون زوجة وأما .

وكانت تثرثر بالحديث اللطيف حتى تجعل الجلسة هانئة نابضة

بالحياة ، ولكنها توقفت فجأة عن حديثها ، وهي تقول لنفسها :

ــ ما أشد غبائي !

ذلك أنها كانت تعرف منذ أمد بعيد أن الحكمة والذكاء وطيبة القلب وقوة القلب ، لا قيمة لها بجانب الوجه الجميل !

وهزت كتفيها ، وقالت :

ــ انني لا أدري أيها الصغيران هل تعلمان أن الوقت يسرقنا ! اذا أردنا أن نتعشى في « الشيان نوار » ، فيجب أن نعد أنفسنا الان للانصراف .

فنهض آرثر ، وقال :

ــ حسنا جدا . سأعود الى الفندق الان لاغتسل ، وسوف نلتقي في منتصف الساعة الثامنة .

ولما أغلقت مرجريت الباب بعد انصرافه ، استدارت الى صديقتها وقالت لها باسمة :

ــ هه . ما رأيك ؟ !

ــ هل تنتظرين أن أكون فكرة كاملة عن شخص ما بعد أن أجلس معه اقل من نصف ساعة ؟

ــ لماذا لا ! ؟

ــ أعتقد أن له وجها لطيفا جدا . انني لم أر في حياتي انسانا مثله ينم وجهه بوضوح عن براءة مقاصده وعفة مشاعره .

*

وعندما فرغت الفتاتان من ارتداء ملابسهما ، قالت سوزي لمرجريت وهي تتأملها باعجاب شديد :

ـ هل تعلمين انك تبدين مثل آلهة اغريقية في ثوب باريسي ؟

فضحكت مرجريت ، ثم قالت :

ـ انني أريد ان اعرف رأيك فيما ينبغي ان افعل مع آرثر ؟

ـ كنت قبل أن أراه ، أتمنى من صميم قلبي أن ينجح في اسعاد حياتك، فقد كنت اعرف من أحاديثك عنه ، أنه اكبر منك سنا ، وانه أول رجل في حياتك ، ومن ثم كنت اخشى وأشفق عليك من الندم بعد فوات الاوان .

ـ لا ، لا ، يمكنك ان تطمئني الى اقصى حد من هذه الناحية .

ـ لكنني الان اتمنى من صميم قلبي ان تتمكني انت من اسعاده . انني لم أعد أخاف عليك منه ، وانما اخاف منك عليه !

ولم تجب مرجريت ، لانها لم تستطع انتدرك تماما ماذا تعني صديقتها سوزي . أما هذه فقد استطردت تقول :

ـ انني لم ار في حياتي رجلا يبدو عليه مثل هذا الاستعـداد العجيب للتعرض للآلام وألوان التعاسة ، ولهذا كوني على حذر يا مرجريت ، وابذلي جهدك لاسعاده ، لان في يدك وحدك مفتاح سعادته وشقائه مدى الحياة .

وهنا بكت مرجريت ، وقالت :

ـ كيف يمكن ان أشقي الانسان الوحيد الذي أحببته في حياتي، والذي أسبغ علي كل هذه الافضال ؟ انني مستعدة للتضحية بحياتي من أجله اذا لزم الامر.

عندئذ قالت سوزي :

ـ لا تبكي يا عزيزتي ، فانك لا تعرفين كيف أتألم لبكائك ، ولن يغفر لي حبيبك احمرار عينيك .

الفصل الثالث

حديث عن السحر

كان مطعم « الشيان نوار » الذي تعودت كل من سوزي ومرجريت ان تتناولا فيه طعام العشاء كل ليلة ، من ألطف مطاعم مونبارناس وأخفها ظلا. ففي قاعته الارضية يتناول كل من يريد طعامه وينصرف ، وكانت هذه القاعة تبدو دائما مزدحمة لما اشتهر به « الشيان نوار » من جودة الطعام ، واتقان الطهي . اما في الطابق الاول منه ، فقد كانت ثمة قاعة صغيرة ذات موائد ثلاث مرتبة على شكل حدوة جواد ، ومخصصة للفنانين من الانجليز والامريكان والقليل من الفرنسيين مع زوجاتهم ، او من هن في حكـــم الزوجات !

وكانت هذه القاعة ممتلئة عندما دخلها آرثر بردون ، ولكن مرجريت كانت قد حجزت له مقعدا بينها وبين سوزي . أما الدكتور بورهيت فقد كان جالسا بجانب سوزي من الناحية الاخرى . وكان جميع من في القاعة يتحدثون بالفرنسية وبأصوات مرتفعة ، وقد احتدم بينهم النقاش عن قيمة المذهب التأثيري في الفن .

وجلس آرثر ثم سرعان ما قدمته مرجريت الى شاب نحيل هادىء السمت طويل القامة أشقر الشعر ، كان يجلس بجانبها متراخيا وكأنه زهرة ذابلـــــة .

وهمست سوزي لآرثر وهي تومىء الى هذا الشاب :

ـ انه يدعى جاجسون ، وهو يشبه الفنان أوبري بيرسدلي من ناحية المظهر ، لا من ناحية المواهب ، انني لم أر اعماله الفنية ، ولكنني اعرف انه محروم من كل موهبة .

ـ كيف عرفت هذا ما دمت لم تر اعماله ؟

فضحكت سوزي قائلة :

ـ أوه ، ان من عقائدنا الشائعة هنا انه لا يوجد بيننا أحد موهوب على الاطـــلاق .

ـ حدثيني عن كل من في القاعة .

وأخذت سوزي تهمس له بالحديث عن كل رجل او امرأة بالقاعة ، وهي تومىء برأسها نحوه أو نحوها ، فذلك العجوز الاصلع المسرف في شرب الخمر ، هو الرسام وارين الذي لا يطيق أن يسمع كلمة سوء من أحد ، والذي لا يجيد الرسم الا اذا كان مخمورا جدا ، بحيث يحتاج الى جهد كبير كي يقبض على زمام الفرشاة والتلوين بها .

أما الجالس بجانب وارين ، فهو المستر أوبريان ، رجل طويل ، أسمر الوجه ، بارز الملامح ، أشعث الشعر ، غليظ الشارب ، وهو ، كما قالت عنه سوزي بالحرف الواحد « انه المثل البارز على أن قوة الارادة ، والحماس الشديد لا يخلقان فنانا موهوبا » .

ـ ومن هي السيدة العجوز الجالسة بجانبه ؟

ـ انها مدام روج الام، اما السيدة الشاحبة الوجه الجالسة بجانبها. انها عشيقة الرسام روج الذي يرسم جميع اللوحـــات الفنية لمتجر لاسيمان الفني . والعجيب ان هذا الرسام لا ينادي مدام روج الام الا بقولـه : « يا حماتي » !

ثم استطردت سوزي قائلة :

ــ أما الجالسة بجانب الدكتور بورهيت ، فهي مدام ماير ، وكانت مربية بولاندية ، ولكنها جاءت الى باريس معجبة بجمالها ، وأصبحت الآن تعيش مع الرسام الجالس بجانبها ، المستر ماير !

وتحدثت سوزي عن جميع الجالسين في القاعة ، ما عدا الشاب راجلز المتخصص في رسم « الطبيعة الساكنة » ، وما عدا المثال الامريكي كلايستون . وكان راجلز يعتبر رمز الاناقة في مطعم «الشيان نوار» ، وكان في الواقع أنيقا الى حد ملفت للنظر ، والمعروف عنه أنه صديق للسيدات من الطبقة الراقية ، وكثيرا ما يتناول عشاءه في بيوتهن .

وفيما كانت سوزي تصف كلايستون بأنفه الدقيق وذقنه المدبب وحديثه اللامع، اذا بالباب يفتح ويدخل شاب ضخم ويلقي بمعطفه بطريقة مسرحية ، ويقول للساقية الحسناء :

ــ ماري ، خلصيني من هذا المعطف ، وعلقي قبعتي على مشجب مناسب .

وكان يتحدث الفرنسية بلهجة فخمة ضخمة اضحكت جميع الموجودين، وجعلت سوزي بويد تقول :

ــ هذا شخص لا أعرفه .

فقال آرثر :

ــ ولكنني أعرفه .

ثم انحنى نحو الدكتور بورهيت الذي كان يتناول طعامه بهدوء ويستمتع بكل ما يجري حوله ، وأردف قائلا :

ــ أليس هذا صاحبك الساحر ؟

فأومأ بورهيت برأسه ، وقال :

ــ نعم . أوليفر هادو .

ووقف الوافد الجديد في طرف الغرفة كأنما يستمتع بتركيز جميع الانظار عليه ، وفجأة قال له الفنان السكير وارين بصوت مبحوح :

ــ انك تبدو كمن يقف امام مصور يا هادو .

وضحك كلايستون ، وقال :

ــ ليس هذا بالشيء الجديد عليه . انه دائما هكذا !

وتحول أوليفر هادو بنظراته الحادة الى وارين ثم قال له ببطء :

ــ يؤسفني ان أراك ايها العظيم وارين . ان عصير العنب الناضج المعتق قد جعل عينيك تبرقان كالزجاج .

ــ هل تعني انني سكران يا سيدي ؟

ــ نعم ، اذا اصررت على استعمال هذه الكلمة الغليظة : سكران .

وتراجع وارين الى مسند مقعده ، وانفجر ضاحكا ، وعندئذ استدار هادو الى كلايستون ، وقال له :

ــ اما انت يا كلايستون ، فقد نبهتك كثيرا الى ان حرمانك من الثقافة يجعلك لا تصلح للاختلاط بالاوساط الفنية .

وظل هادو برهة اخرى وهو في ذلك الوضع المصطنع . وابتسمت سوزي بريد في مرح . لقد كان عجيب المنظر ، ضخم الهيئة ، طويل القامة الى حد يلفت النظر ،وكان وجهه مكتنزا ، وترتسم عليه بصفة دائمة ابتسامة احتقار لكل شيء ولكل انسان . وقد تقدم وصافح الدكتور بورهيت قائلا:

ــ سلام يا اخي الساحر ، اني احييك ، واذا لم تكن استاذا في السحر ،

فأنت على الاقل تلميذ جدير بتقديري .

وكانت سوزي تهتز بالضحك العريض ، فالتفت اليها ، وقال :

ـ سيدتي ، ان رنين ضحكاتك في أذني اجمل من تغريد البلابل في حديقة فارسية .

وأخذ الدكتور بورهيت في تقديم أوليفر هادو لاصحابه ، ولما تمت هذه العملية ، راح الشاب الضخم يسلط لسانه اللاذع على الرسام الايرلندي أوبريان ، ثم على الشاب الرقيق جاجسون ، ثم على الفرنسي ماير ، ولم يستطع هذا الاخير ان يحتمل لذعات أوليفر هادو ، فتناول يد فتاته ونهض معها ، قائلا بوجه مقطب :

ـ لقد آن لنا أن ننصرف .

فقال أوليفر هادو وهو يجلس على مقعد ماير باسما :

ـ يعز علينا أن نحرم من اللآلىء البلاغية التي كانت تتساقط من شفتيك .

وبعد انصراف الرسام وفتاته ، أردف هادو قائلا :

ـ لقد رأيت القاعة مزدحمة ، ولا مكان لي فيها ، فقررت بغريزتي النابليونية أن الطريقة الوحيدة للحصول على مقعد ، هي اهانة احدهم وارغامه على الانصراف ، وهكذا ظفرت بمقعدين بدلا من مقعد واحد

وأقبلت اليه ماري الساقية تحمل قائمة الطعام ، فألقى عليها نظرة فاحصة ثم قال :

ـ لحم بارد ، أيتها الحبيبة ،ودجاجة ، وسمك سول مشوي ، وحساء البازلاء .

ولما جاءت الساقية بهذه الكمية الضخمة من الطعام ، اخذ هادو يأكل

بشراهة اثارت انتباه الجميع كالمعتاد . وكانت مرجيت تنظر اليه مفعمة بالدهشة والمرح وشيء كثير من الرضا ، لانها كانت تتأمله بعين الفنان الفاحص . وكان أوليفر هادو قد تجاوز الثلاثين من عمره ، ولا بأس بملامحه بوجه عام ، فقد كان صغير الاذنين ، غليظ الشفتين ، وكان شعره الاسود المموج الغزير قد خف وتراجع الى أعلى عن جبهته وفوديه وأصبح أقرب ما يكون الى الصلع . أما عيناه فكانت تطل منهما نظرات كاهن ماكر شهواني المزاج . ومن ثم كان نفور مرجيت منه يزداد كلما اختلست النظر اليه حتى بلغ حد الكراهية الغريزية . بل لقد ارتعدت رغما منها وهي تراه يلتهم ما أمامه من الطعام كالوحش . ورفع هو عينيه ببطء اليها ، فأشاحت بوجهها عنه وقد احمرت وجنتاها اضطرابا وخجلا . وكان افظع ما فيه نظراته التي تبدو كأنها تخترق اجسام الناظر اليهم ، وتنفذ الى اعماق مشاعرهم .

وكان وجوده في القاعة قد ألقى على جوها لونا من الحرج والجمود ، ولم يلبث ان نهض الفنانون الفرنسيون منصرفين ، ثم تبعهم أوبريان ، ومن ورائه راجلز ، ثم أعقبهما جاجسون ، ودفع كلايستون ، المثال الامريكي حسابه ، وانصرف في صمت . ولكن هادو قال له قبل ان ينصرف تماما :

ـ لقد صنعت تماثيل كثيرة يا عزيزي كلايستون للاسود ، فهل قمت برحلات لصيدها في مواطنها الاصلية ؟

ـ لا . لم افعل .

ولم يعرف كلايستون لماذا ألقى عليه هادو هذا السؤال ، ولكنه تحفز في غضب للرد على أية عبارة ساخرة يتعرض لها . وعاد هادو يقول :

ـ اذن فأنت لم تر الضباع وهي تنهش لحم الظباء ، ثم تتفرق هاربة عند ظهور ملك الغاب .

وصفق كلايستون الباب وراءه تاركا هادو في القاعة بمفرده مع

مرجريت وآرثر بردون وسوزي بويد والدكتور بورهيت وابتسمت سوزي بهدوء ، وقالت باستخفاف :

ـ هل أنت بهذه المناسبة صياد أسود ؟

فالتفتت نحوهاً وقال : وهو يحدق النظر فيها :

ـ ليس لي مثيل في صيد الوحوش . وأعتقد اني صدت منها ما لم يصده رجل من قبل .

وكان ينطق بهذه العبارة في هدوء تام جعل مرجريت تحملق فيه بدهشة وحتى اضطر آرثر لان يقول له بصراحة :

ـ يبدو انك لا تعرف شيئا اسمه التواضع يا مستر هادو !

ـ ان التواضع الاجوف دليل على حقارة المنبت ، وأنا رجل انحدر من أصل عريق .

وهنا رفع الدكتور بورهيت رأسه ، فقال هادو باسما :

ـ انني من ناحية عراقة الاصل لا أقل عراقة عن الملوك والامراء ، فأنا أنحدر من صلب الملك جيمس الاول ، ولاسرتي علاقات نسب ومصاهرة مع أنبل العائلات الانجليزية ، وان ممتلكاتنا لتقع في ستافوردشير ، كما اننا نمت بصلات النسب الى آل مارستون ، وبارنابي ، وهولنجتون ، الذين كانوا جميعا يتسابقون في تقديم بناتهم للزواج من شبابنا .

فقال آرثر بجفاف :

ـ هذه حقائق يمكن التثبت منها في المراجع المناسبة .

ـ نعم . يمكنك هذا .

وقال الدكتور بورهيت في مرح :

ـ وقصورك الشرقية، وشبابك الذي عشته فيبلاد الاحلام بين الجواري الحسان والعلماء الذين نقلوا الى ذهنك اسرار الحكمة !

ـ لقد تعلمت في كلية ايتون ، وتخرجت في جامعة اكسفورد عام ١٨٩٦ .

ـ من أي قسم بها ؟

ـ من قسم العلوم .

فقال آرثر بسرعة :

ـ اذن فقد كنت زميلا لفرانك هاريل الذي يعمل استاذا مساعدا للطب بمستشفى سانت ليوك ؟ انه من اصدقائي الحميمين .

ـ نعم . انه من أعز اصدقائي ايضا .

ـ اذن سأكتب اليه ليذكر لي ما يعرفه عنك .

ورأت سوزي بحكمتها ان تخفف جو التوتر فقالت هاتفة :

ـ انني أموت شوقا الى سماع بعض مغامراتك عن صيد الاسود .

وكأنما كان هادو ينتظر منها هذه العبارة ملهوفا ، فاذا به يندفع في حديث طويل عن مغامراته في صيد الوحوش المفترسة ، وعن الاسود الثلاثة التي قتلها بثلاث رصاصات متتابعة ، وعن الرحالة الالماني الصياد برهارت الذي شهد هذه الواقعة ، وعن شجاعته التي لا مثيل لها في مطاردته لاسد جريح في قلب الغابة . ولم يطق آرثر بردون صبرا على « المغامرة » الاخيرة ، فقال له ، متهكما :

ـ يبدو انك شجاع الى حد لا يوصف !!

ـ ان مطاردة أسد جريح في قلب الغابة من اشد المغامرات خطرا ، وهذا يعني أن لي اعصابا من حديد ، وشجاعة لا مثيل لها .

وكان لهذه الاجابة اثر غريب على آرثر ، ومن ثم نظر اليه بسرعة ، ثم اذا به ينفجر في ضحك مرتفع متواصل اغرى الجميع بأن يقلدونه . أما هادو فقد ظل جالسا في هدوء وكأنما هم يضحكون من شخص آخر . ولما توقف آرثر عن الضحك ، ركز هادو نظراته عليه ، ثم قال :

ـ ان ضحكاتك تشبه صرير الاشواك وهي تتكسر في نيران المدفـأة.

ثم طاف بعينيه على وجوه الباقين ، وقال وهو يبتسم بطريقة شاذة :

ـ المعروف ان اقل الناس ذكاء يمكنه ان يدرك ان الرجل يستطيع ان يسيطر على القوى البدائية بالشجاعة المطلقة . ان الذهن المتقلب الشهواني لا يمكن ان يتحكم في عالم الجن ، ولا الضعيف النفس يستطيع ان يستمتع بالحوريات .

وحملق فيه آرثر في دهشة وعجب ، وهو لا يفهم شيئا مما يعنيه هادو الذي استطرد يقول بلا اهتمام بأحد :

ـ ولكن الانسان المتكامل الشخصية الذي يعرف كيف يتكيف مـع الحياة ، هو انسان نشيط ، قوي ، مسيطر ، يستطيع ان يجعل العالم طوع ارادته . انه يستطيع ان يمضي في قلب العاصمة دون ان تسقط على رأسه قطرة من مطر ، او دون ان تحرك الرياح ثنية في ملابسه . انه يستطيع ان يمشي وسط النار ولا يحترق .

فقال آرثر متهكما :

ـ وطبعا لا يمكن اتمام هذا الا بقوة اخرى خفية ، هي قوة السحر ؟

فهز هادو كتفيه وقال :

ـ ان السحر نوع من الفن يقتضي استخدام وسائل خفية للوصول الى نتائج مرئية . فالارادة ، والحب ، والخيال ، كلها قوى سحرية يتمتع بها كل

انسان . ولكن الذي يستطيع ان ينميها الى اقصى حد هو الساحر ، انه بهذه القوى المتضخمة يستطيع ان يسيطر على عناصر الطبيعة ، وما وراء الطبيعة .

وقال آرثر بجفاء :

ــ انني شخصيا لا أستطيع ان أومن بشيء يتعارض مع العقل والاسس العلمية المتفق عليها .

وأسرعت سوزي ، كعادتها ، الى تلطيف الجو بقولها :

ــ ان كنت يا مستر هادو احد السحرة ، فاني سعيدة بمعرفتك ، فقد طالما هفوت الى الالتقاء بساحر مثقف يدرس فنون السحر على أسس علمية .

فلوح هادو بيده ، وقال :

ــ لا ، انني لم أبلغ هذه الدرجة ، ولكن يمكنك ان تسميني « ابن الظلال » .

فقال آرثر ضاحكا متهكما :

ــ عجبا ! كنت أظن انك أبعد الناس عن رقة الظل !

وأربد وجه أوليفر هادو بالغضب ، وأطلت من عينيه الصغيرتين المستديرتين امارات الحقد والكراهية ، وارتعدت شفتاه الغليظتان حتى أصبح وجهه ينم على هذه القسوة التي اشتهر بها نيرون في التاريخ . لقد بدا ان التعريض بضخامة جسمه وبداته وامتلائه بالشحم واللحم قد نفذ الى أعماق نفسه .

ورأت سوزي انه على وشك توجيه عبارة مهينة الى آرثر ، ولا شك ان هذه ستؤدي الى معركة بين الشابين ، ومن ثم أسرعت تقول :

ــ حسنا . اذا أردنا ان نمضي الى مدينة الملاهي ، فيجب ان ننصرف الآن.

ثم أردفت قائلة وهي تغمز بعينيها الى مرجريت :

ــ ولا شك ان مرجريت تتمنى ان تتخلص منا الآن حتى تنفرد بحبيبها .

ونهضوا جميعا ، وانطلقوا نحو السلم مسرعين .

الفصل الرابع

الساحر العربي

ووصلوا جميعا الى الشارع المزدحم الضيق المؤدي الى طريق مونبارناس الواسع ، وكانت مركبات الترام تسير أمامهم رائحة غادية ، وتملأ الجو برنين اجراسها .

وكانت مدينة الملاهي تقع في شارع « لوادي بلفورت » على مسافة ميل من حيث يقفون ، واستدعى آرثر احدى المركبات المارة ، وأخبرت سوزي السائق عن الوجهة التي سيقصدونها ، ثم لاحظت ان هادو ، الذي كان واقفا ينتظر بالقرب منها ، قد وضع يده على عنق الجواد ، وعندئذ ، وبدون سبب واضح ، بدأ الجواد يرتعد . لقد سرت الرعدة في جسمه حتى أطراف قوائمه . ووثب السائق من مقعده وأسرع الى الجواد المسكين وراح يربت على رأسه ويهدىء من خوفه . وهبطت سوزي ومرجريت من المركبة وقد تأثرتا بمنظر الجواد البائس ، فقد لاح انه لا يعاني من ألم عضوي ، وانما من خوف شديد . ودون ان تدري لماذا خطرت لسوزي هذه الفكرة التي جعلتها تقول لهادو بصوت حاد :

ــ ارفع يدك عن عنق الجواد يا مستر هادو .

فابتسم وأطاعها . وما أن رفع يده ، حتى بدأت الرعدة تقل في جسم الجواد ، وسرعان ما عاد الى حالته الطبيعية ولكنه ظل ، كما بدا ، خائفا بعض الشيء .

وقال آرثر :

ـ لا أدري ماذا دهى الجواد بحق الشيطان !

ونظر هادو اليه برهة بعينيه اللتين تنفذان ـ كما يبدو ـ الى اعماق النفس ، ثم رفع قبعته ، وانصرف . واستدارت سوزي فجأة الى الدكتور بورهيت ، وقالت له :

ـ أتعتقد انه هو السبب فيما حدث للجواد ؟ لقد سرت الرعدة في جسمه بمجرد ان وضع يده على عنقه ، وزالت الرعدة حين رفعها .

وقال آرثر :

ـ كلام فارغ !

وقال الدكتور بورهيت :

ـ أعتقد ان لديه بعض الحيل والخدع الخفية ، وأذكر انه عندما جاء لزيارتي في مسكني أول مرة ، جعل قطتين أليفتين عندي تفزعان وتموءان بمجرد النظر اليه ، ثم تهربان من أمامه وكأنهما رأتا شيطانا .

وارتعدت مرجريت بعنف ، وقالت :

ـ انني لم أر في حياتي رجلا يثير النفور والاشمئزاز مثله . ولست أدري ماذا يثير الخوف في نفسي منه ، وأنا في مكان واحد معه ! انني حتى الآن أشعر بنظراته لا تزال مركزة علي ، وأرجو ألا أراه بعد اليوم أبدا .

وأرسل آرثر ضحكة خفيفة ، وضغط برفق على يدها ، وتشبثت هي بيده ، وشعر هو بأنها ترتعد . ولكنه كان يعتقد شخصيا ، ان الامر كله لا يعدو مجرد مصادفة ، أو لون من الخداع . وان أوليفر هادو في رأيه اما أن يكون مؤمنا بأشياء لا يؤمن بها الا مجنون أو معتوه ، او انه دعي مختال

بنفسه يريد أن يلفت الانظار الى شخصه بمثل هذه التصرفات الخادعة .
وقال اخيرا :

ــ هل تعرفين ماذا سأفعل ؟ سأرسل الى فرانك هاريل وأطلب منه ان يبعث الي بكل ما يعرفه عن أوليفر هادو . نعم سأكتب اليه خطابا الليلة .

وقالت سوزي :

ــ اني أتمنى ان تفعل ذلك ، لان أوليفر هادو يثير اهتمامي الى أقصى حد . والواقع انه ليس كباريس مدينة يمكن ان يجتمع فيها الشواذ من انحاء العالم . فأنت لا تلبث عاجلا او آجلا ان تلتقــي بأشخاص يؤمنون بكل شيء ، او لا يؤمنون بشيء اطلاقا . تصور أنت كيف يمكن ان يؤمن شاب مثل أوليفر هادو ، خريج اكسفورد وفي القرن العشرين ، والمقيم الآن في باريس ، بأنه ساحر !!

وقال الدكتور بورهيت :

ــ انني ، بسبب اشتغالي بموضوع السحر والسحرة والكيمياء القديمة فترة ما في حياتي ، قد التقيت بأشخاص غرباء الاطوار جدا . ولكنني لم ألتق بواحد أشد غرابة من أوليفر هادو . والغريب أن احدا لا يدري الى أي مدى يؤمن هو بما يقول ! هل هو مدعي افاق، ام رجل مجنون؟ هل هو يخدع نفسه أم يخدع الآخرين ويضحك منهم ؟ انني لا ادري ، ولكنني أعرف انه كثير الأسفار ، ويتحدث بلغات مختلفة في براعة ، ثم انه واسع الاطلاع في كتب الكيمياء والسحر القديمة .

وتوقف الدكتور بورهيت عن الحديث برهة ، قبل ان يهز رأسه ، ثم يستطرد قائلا :

ــ أنا اعرف ان صديقي آرثر سيسخر مني حين اقول ان أوليفر هادو هذا يتمتع ، رغم كل شيء ، بقوى خفية تجعله يقوم بأعمال شبيهة بالمعجزات.

وقبل أن يجيب آرثر بشيء ، توقفت المركبة عند مدخل مدينة الملاهي، فهبط الجميع ، ولم يلبثوا ان اندمجـــوا في ذلك الجو المفعم بالضجيج والانغام الموسيقية والضحكات والصيحات وأزيز الالعاب المختلفة .

وفيما كان اصحابنا الانجليز يتجولون بين هذه الجموع الغفيرة ، وتحت الانوار المتوهجة ، اذا بأوليفر هادو ينضم اليهم فجأة دون ان يهتم بما اذا كانوا يرغبون في صحبته أم ينفرون منها . وكان كالمعتاد يلفت أنظار الذين حوله بقامته الطويلة المديدة ، وجسمه الضخم وتصرفاته الشاذة ، ولاحظت سوزي انه شديد الاستمتاع بما يثار حوله من اهتمام وعجب . وكانت امارات البهجة تزداد وضوحا على وجهه كلما لاحظ الناس يتبادلون الاشارات والايماءات نحوه .

وأبدت مرجريت رغبتها في أن يروغوا منه عند أول فرصة سانحة ، ولكن سوزي اعترضت قائلة لها في همس :

ــ انه أعجب مخلوق رأيته في حياتي ، وأنا لن أدعه يبتعد عن ناظري بأي ثمن .

ولما توقفوا امام مصور يعلن ان في مقدوره التقاط صورة أي شخص وتقديمها اليه بعد لحظات ، وقف أوليفر امامه لتصويره ، ولما أخذ الصورة، قدمها الى مرجريت وهو ينحني باحترام شديد ، قائلا :

ــ ألتمس منك ان تقبلي الصورة الوحيدة الموجودة في الوجود لاوليفر هادو .

فقالت ببرود :

ــ شكرا .

وأرادت ان ترفض قبول الصورة ، وعندما لم تجـد العذر المناسب

للرفض ، لم يسعها الا أن تقبلها بعد أن وضعها بعناية في مظروف ، وبعد أن ساروا قليلا ، توقفوا فجأة امام خيمة عليها كلمـات شرقية الاحرف ، وصور ترمز الى ساحر يروض مجموعة من الافاعي ، وكان ثمة رجل شرقي يجلس القرفصاء أمام باب الخيمة يضرب على طبلة بلا انقطاع فلما رآهم يقفون أمامه ، خاطبهم بالفرنسية الركيكة قائلا :

ــ تفضلوا بالدخول ايها السادة . تفضلوا للفرجة على ترويض الافاعي السامة .

وقال هادو :

ــ هلم ندخل لنرى ماذا يستطيع هذا المخلوق انيعرض أمامنا ! سأشتري التذاكر لكم جميعا .

ولما دخلوا الخيمة ، وجدوها مضاءة اضاءة خافتة بقنديلين ، كما رأوا ستة مقاعد موضوعة في شبه دائرة على الارضية العارية ، وفي ركن منهـا كانت ثمة امرأة جالسة بلا حراك وقد ارتدت ملابس تقليدية ملونة ، وغطت وجهها بحجاب .

ثم تبعهم الى الداخل الرجل الذي كان يضرب على الطبلة ، وكشفت ابتسامته عن أسنان بيضاء منتظمة ، ثم قال :

ــ انني أدعى محمد ، وأنا ساحر الافاعي المشهور الذي أدهش بأعاجيبه كبار القواد الانجليز .

وبعد ان جلس الجميع ، مضى هو الى كومة في أحد جوانب الخيمة ، وتناول غرارة من الجلد ، ووضعها على الارضية في وسط الحلقة وارتعدت مرجريت وهي ترى السطح الخارجي للغرارة الجلدية يتحرك ببطء نتيجة لحركات الافاعي في داخلها . أما المرأة الجالسة في ركن الخيمة ، فقـد أخذت تنقر على طبلة صغيرة نقرات منتظمة ، ثم ترسل بين الفينة والفينة

صوتا عاليا يقشعر منه البدن . وفجأة ابتسم الرجل الساحر ، ودس يده في داخل الغرارة الجلدية ، ثم أخرجها وهي ممسكة بأفعى تتلوى . وانتظر برهة ، ثم مر بيده الاخرى على جسمها المتلوي ، فاذا هي تتصلب كالعصا ، ولا يبدو فيها من مظاهر الحياة الا عيناها البراقتان .

ثم تناول الساحر ، أو الحاوي ، مزمارا من الغاب ، وراح يعزف عليه نغمات هادئة ، ولم تلبث الأفعى حتى راحت تتلوى وهي تقف على ذنبها ، وتشرع رأسها في الهواء حتى عادت واقفة وقوف العصا على الارض .

وأخذ أوليفر هادو يتابع ذلك الحاوي بنظرات تنم على اللهفة والرضا والاهتمام ، أما مرجريت ، فقد حاولت ان تخفي وجهها خوفا وفزعا ، ولكن آرثر قال لها مهدئا :

ــ لا داعي لان تخافي . فان هؤلاء الحواة يلعبون بالافاعي بعد انتزاع أنيابها السامة .

وهنا نظر اليه أوليفر هادو برهة قبل ان يقول :

ــ ان الرجل لا يكون ساحرا للافاعي الا اذا أصبح ، رغم انف العلم الحديث ، عنده مناعة ضد سمومها القاتلة .

ــ أهذا هو رأيك ؟!

ــ نعم . لقد رأيت في مدينة مدراس بالهند ساحر افاعي يموت خلال ساعتين بعد أن لدغته أفعى من نوع الكوبرا السام. وكان مشهورا بمعجزاته في ترويض أفظع انواع الافاعي ، وفي ذات ليلة ، طلبت من أحد اصدقائي ان يصحبني اليه . ولكننا لم نجده في مسكنه ، فانتظرناه حتى حضر مع لفيف من اصدقائه ، ثم ذكرنا له ما نريد . وكان قد جاء من حفلة زفاف بعد ان اسرف في شرب الخمر ، ومع ذلك فقد أحضر أفاعيه وراح يدهشنا بمعجزاته معها . وأخيرا تناول افعى ضخمة من نوع الكوبرا من كيس جلدي

خاص ، وقبل ان يبدأ ألعابه معها ، اذا بها تندفع وتلدغه في ذقنه ثم تتراجع تاركة علامتين كوخز الدبوس في مكان اللدغة .

وهتف الساحر في فزع « انني رجل ميت » . وأراد الذين معه أن يقتلوا الافعى ، ولكنه اعترض عليهم قائلا « دعوها وشأنها ، انها قد تكون ذات فائدة لزميل لي في هذه المهنة ، أما أنا ، فقد أصبحت في عـــداد الموتى ، ولن ينقذني شيء » .

ومات الرجل في خلال ساعتين ، لانه ، بسبب اسرافه في شرب الخمر، نسي تلاوة جزء من التمائم السحرية التي تحميه من السموم .

وهنا قال له آرثر :

ــ ان لديك مجموعة مدهشة من الاقاصيص الخيالية . أما أنا ، فيهمني أن أرى الدليل المادي على أن هذه الافاعي سامة حقا !

واستدار أوليفر الى الساحر العربي وتحدث معه باللغة العربية ، ثم عاد يوجه الحديث الى آرثر قائلا :

ــ يقول ان لديه ثعبانا من ذوي القرنين ، واسمه العلمي «سيراستيس» كما تعلمون . وهو ثعبان مصري رهيب يقال ان كليوباترا انتحرت بسمه خشية الوقوع أسيرة في يدي الامبراطور أوغسطس ، ويجرها في موكب نصره .

وسألته سوزي قائلة :

ــ وماذا تنوي أن تفعل بهذا الثعبان السام ؟

وابتسم ولم يجب ، وانما تقدم الى وسط الحلقة ، وركع على ركبتيه ، ثم راح ينطق بعبارات عربية أخذ الدكتور بورهيت يترجمها لاصحابه :

ــ أيها الثعبان ، اني آمرك باسم الله القوي الكبير أن تتقدم نحوي ، ما

أنت الا ثعبان ، والله اعظم من كل الثعابين . أطع امري وتقدم .

وبدأت حركة واضحة تسري داخل الغرارة الجلدية ، ثم اذا بثعبان صغير الحجم ينساب منها ، وكان ثعبانا ذا لون رمادي فاتح ، وفوق كل عين من عينيه ما يشبه القرن الصغير . ولما وصل الى اوليفر ، رقد على الارض ملتفا على نفسة قليلا .

وقال أوليفر هامسا للدكتور بورهيت :

ــ هل تعرف هذا النوع ؟

ــ نعــــم .

وجلس الساحر العربي بلا حراك في مكانه . وتوقفت المرأة عن قرع الطبل ، وأمسك هادو بالثعبان وفتح فمه ، وسرعان ما انشب هذا نابيه في جانب من كف يده . وحاول آرثر عبثا ان يرى اية امارة من امارات الالم تبدو على أوليفر ، الذي ظل ثابتا ، لا يجفل ، وانما اخذ يكرر عبارة معينة باللغة العربية ، وفجأة سقط الثعبان على الارض كما تسقط قطرة الماء من السقف . وانثالت الدماء من اللدغة بغزارة ، وبصق هادو ثلاث مرات عليها وهو يغمغم بكلمات لم يفهمها أحد . وفرك الجرح ثلاث مرات بأصابعه ، وعندئذ توقفت الدماء ، ومد يده الى آرثر ليفحصها ، وهو يقول :

ــ هذا ما يسميه الجراحون العلاج بالايحاء الذاتي !

ولاحت الدهشة على وجه آرثر بردون ، ولكنه شعر بالضيق وتوتر الاعصاب في الوقت نفسه ، وأبى ان يعترف بغرابة ما حدث ، ومن ثم قال :

ــ انك لم تثبت لي بعد ان هذا الثعبان من النوع السام حقا !!

فابتسم قائلا :

ــ انني لم أفرغ بعد .

ثم تحدث مرة اخرى مع الساحر المصري الذي أمر زوجته ، فنهضت في صمت ، وتناولت أرنبا أبيض اللون من أحد الصناديق ، وقدمته من أذنيه الى أوليفرو هادو الذي وضعه بالقرب من الثعبان ذي القرنين . وقبل أن يتحرك أحد من مكانه ، مرق الثعبان كالسهم ولدغ الارنب . وأرسل الحيوان البائس صيحة خافتة ، ثم انتابته رعشة ، سقط بعدها ميتا بلا حـــراك .

وصاحت مرجريت وهي تقفز واقفة :

ــ ما أفظع هذا ! ما افظع هذه القسوة !

وقال هادو ببرود :

ــ لقد اقتنعت الآن ؟

وهرعت الفتاتان الى خارج الخيمة في خوف واشمئزاز ، وتبعهما آرثر ثم الدكتور بورهيت ، أما اوليفر هادو فقد بقي داخل الخيمة مع ساحر الافاعي .

الفصل الخامس

عجائب السحر

كان الدكتور بورهيت قد دعا آرثر بردون وحبيبته مرجريت وصديقتها سوزي بويد لزيارته في مسكنه يوم الاحد في حي جزيرة سانت لويز .

وقررت سوزي ان تلتقي بالعاشقين في مسكن الدكتور بورهيت ، وفي الموعد المحدد ، لكي تتيح لهما فرصة الذهاب على انفراد .

وفي الطريق الى مسكن الدكتور بورهيت ، ظل آرثر يركز نظراته في صمت على وجه مرجريت أثناء انطلاق المركبة ، كأنما هو يتعبد في محراب جمالها . وفجأة ابتسمت ثم قالت تداعبه :

ـ أوه ! ماذا بك يا آرثر ؟ يخيل الي أنك تراني لاول مرة !!

وعندئذ طفرت الى عينيه سحابة من الدموع ، وهو يقول بصوت ينم عن الارتباك :

ـ تمنيت لو انك لست جميلة الى هذا الحد . فقد قرأت كثيرا ان هذا النوع من الجمال الصارخ لايجلب السعادة لصاحبته ، ولا لمن يحبها . ولهذا فاني أفزع من حدوث شيء مفاجىء ينتزع منا سعادتنا . وانه ليبدو لي أن الدنيا لن تغفر لي كل ما أشعر به من سعادة ، وكل ما لقيته في حياتي من توفيق وحظ سعيد .

وحاولت مرجريت ان تقول شيئا، ولكنه اسرع قائلا في صوت خافت، كأنما يحدث نفسه .

ـ ان كل شيء في حياتي يسير في الطريق الذي أريده . وما من شيء رغبت فيه حقا الا وظفرت به . ولست ادري لماذا أشعر ان الحياة سوف تمضي بي في طريق آخر !

وهز رأسه ثم عاد يقول مغمغما :

ـ ولكن ، أليس حديثي هذا كله زاخرا بالحماقة والوهم ؟ !

وضحكت مرجريت ، وشرع الاثنان يتبادلان حديثا اكثر بهجـــة واشراقا ، حديث الحب والنجوى .

وكانت المركبة قد عبرت القنطرة ، وسارت بحذاء النهر في طريقها الى بيت الدكتور بورهيت .

وكان المنزل جميلا ، ومن الطراز القديم ، وتحيط به حديقة غناء ، وتؤدي الى داخله درجات من الرخام الايطالي الفاخر ، وقد ابتهجت سوزي حين رأت ان المنزل يدل بجماله على حسن ذوق صاحبه ، وعلى ارتفاع مكانته في المجتمع الفرنسي . ولما فتح لها الدكتور باب الطابق الاول بنفسه ، قال باسما وهو يرحب بها :

ـ لقد وصل آرثر ، ومرجريت منذ لحظات .

وعبر معها قاعة طعام فاخرة الى غرفة مكتبته وكانت هذه الغرفة فسيحة اصطفت خزانات الكتب حول جدرانها وكانت الكتب متناثرة في كل مكان ، فوق المائدة الكبيرة التي في وسطها ، وعلى المكتب الضخم في جانب منها ، وعلى المقاعد والارائك ، ومتناثرة على السجاد الفاخر الذي تغوض فيـــه الاقدام ، فقد بدت الغرفة وكأنها أصغر من حجمها .

وصاحت سوزي في ابتهاج شديد قائلة :

ـ أوه أرجو الا يشغلني أحد الان ، لاني أريد الاستمتاع بكل هـــذه الكتب !

فقال لها الدكتور بورهيت :

ـ يمكنك أن تستمتعي بقراءة ما تريدين ، ولكنني أخشى أن يخيب ظنك ، فهذه الكتب رغم تنوع موضوعاتها ، فأنني اعتقد انها لا ترضي مزاج سيدة انجليزية شابة .

ثم عاد يقول وهو يقدم لضيوفه السجائر :

ـ ان معظم هذه الكتب تبحث في علوم ما وراء الطبيعة واعتقد انه لا توجد في الدنيا مكتبة خاصة تضم مثل هذه المجموعة من الكتب في هذا العلم وحده .

وبعد ان أشعل لمرجريت سيجارتها ، أردف قائلا :

ـ ولا شك أن صديقي الشاب آرثر لا يصفني بالحماقة والخبل بدافع من أدبه وسلوكه . ولكن ابتسامته تعبر بوضوح عن رأيه !

فقال آرثر بردون معتذرا :

ـ الواقع ان لكل انسان الحرية في أن يقضي اوقات فراغه في الهواية التي يحبها . وطالما ان هوايتك لعلوم ما وراء الطبيعة لا تؤثر في عملك كجراح تأثيرا سيئا ، فليس لاحد أن يعترض عليها .

ـ شكرا يا صديقي الحكيم ، شكرا .

ومضى الدكتور بورهيت يساعد سوزي على انتقاء الكتب التي يحسن أن تتصفحها وتتفرج عليها ، ولم يلبث أن التقط كتابا مطبوعا في القرن السابع عشر ، يمتلىء غلافه بأنواع من الرموز والعلامات وقال وهو يفتحه:

ـ هذا كتاب من أعجب واغرب الكتب التيوضعت عن السحر الاسود . ولعل أعجب ما فيه انه يضم قائمة كاملة بجميع المراجع التي تتناول هذا الموضوع في مختلف انحاء العالم .

وبعد أن تحدث بمثل هذا الحماس وهو يستعرض لها كتابا بعد اخر من كتب السحر وعلوم ما وراء الطبيعة ، قاطعه آرثر قائلا وهو ينهض ليريح ساقيه من الجلوس .

ــ انني لا أدري الى أي حد تؤمن بهذه الاشياء التي تحدثنا عنها . فانك تتحدث حينا بوقار وحماس ، ثم اذا بك تضحك ساخرا في النهاية

فقال الدكتور بورهيت :

ــ انني يا صديقي العزيز لا أعرف فعلا الى أي مدى أو من بهذا !

وقالت سوزي :

ــ ألم تعترض حياتك تجربة عجيبة لا يستطيع العلم الحديث ان يجد لها تعليلا ؟!

ــ لقد اعترضت حياتي تجارب كثيرة عجيبة ، ولكن يمكن تعليل معظمها أو كلها بالمصادفة ، ولكن تجربة واحدة لا يستطيع احد ان يكذبني فيها لاني رأيتها بنفسي ، كما لا أعتقد ان احدا ــ أيا كان ــ يستطيع أن يعللها تعليلا علميا خالصا .

ــ حدثنا عنها . أرجوك : أهي من نوع التجربة التي قام بها أوليفر هادو في خيمة ساحر الافاعي ؟

ــ لا . انها تختلف عنها تماما ، ولكن التجربة التي قام بها أوليفر أمامنا دليل قاطع على أنه يتمتع بقوى خارقة لا يحيط بها العقل البشري . وأظن ان صديقنا آرثر لا يستطيع ان يجد لها تعليلا مقنعا

فقال آرثر مرغما :

ــ حقا . انني لا أجد لها تعليلا مقبولا .

وقالت مرجريت :

ـ ان كل ما أعرفه عن أوليفر هذا انه ملأ نفسي بالنفور منه . ولم يحدث في حياتي اني كرهت انسانا بمثل هذه السرعة .

وقال آرثر :

ـ لقد كتبت الى صديقي فرانك هاريل كي يخبرني بكل ما يعرفه عن أوليفر هادو . وأعتقد انني سأتلقى رده قريبا جدا .

وقالت مرجريت بحرارة :

ـ لشد ما أتمنى لو اننا لم نره أو تتعرف عليه . اني اشعر انه سيجلب علينا النحس ، وسوء الطالع .

وقالت سوزي بمرح :

ـ انكم جميعا متحاملون عليه ، ولكنني أراه شخصية عجيبة غريبة جديرة بالدراسة والاهتمام ، ولهذا دعوته ليشرب معنا الشاي في المرسم .

وعندئذ سمع الجميع صوت أوليفر هادو يقول :

ـ ولا شك في اني سأقبل هذه الدعوة يا مس بويد .

واستدار الجميع في دهشة وارتباك ليروا أوليفر هادو واقفا بجسمه الضخم امام الباب . وكان اشد ما يربكهم انهم لا يعرفون اي جانب من أحاديثهم سمعه وهو واقف في سكون واستخفاف .

واستردت سوزي هدوءها بسرعة ، وقالت بمرح :

ـ كيف دخلت بحق السماء ؟

فقال باسما ساخرا :

ـ ان هذا سر المهنة ! ان دخول اي بيت ليس بالامر العسير على ساحر مبتدىء .

وقال الدكتور بورهيت ، وهو يمد يده مصافحا :

ــ أيا كانت طريقة دخولك ، فانك على الرحب والسعة .

وقال آرثر في ضيق للدكتور بورهيت :

ــ انني لا ادري ما الذي يدفعك الى هواية مثل هذه الدراسات الشاذة، لقد كنت أظن ان نبوغك في الطب والجراحة خير واق لك من البحث في هذه الخرافات والاوهام .

فهز الدكتور بورهيت كتفيه ، وقال :

ــ الواقع انني أحاول ان ادرس الجانب الشاذ للعقل البشري ، واني أعترف انني برغم كل ما قرأته في كتب الفلسفة ، وعلوم ما وراء الطبيعة لم أطمئن الى شيء يمكن التأكد منه بحواسنا المعروفة .

وهنا صاحت سوزي قائلة :

ــ أوه ، لا لا .. لقد كنت على وشك ان تذكر لنا تجربة وقعت لـــك وجعلتك تؤمن بأن هناك فعلا أمورا لا يستطيع العقل البشري ، ولا العلم الحديث تعليلها . فما هي ؟

ــ آه ، نعم .. نعم . لقد حدثت لي هذه التجربة في الاسكندرية ، وكان بها رجل معروف بأعمال السحر ، وحدث اني شعرت بالقلق على أمي المقيمة بمقاطعة بريتاني بعد أن انقطعت رسائلها عني ، رغم كثرة الرسائل التي أرسلتها اليها ، ولم أدر ماذا أفعل ، لان عملي في ذلك العهد لم يكن يتيح لي السفر الى بريتاني لرؤيتها والاطمئنان عليها . واقترح صـــديق لي أن نمضي الى ذلك الشيخ الساحر لنجربه ، فذهبنا اليه . ولن أطيل عليكـــم الوصف . فقد جاء الشيخ بغلام لم يبلغ الحلم بعد ، ووضع في يده فنجانا كتبت عليه حروف ورموز مختلفة ، ووضـــع في الفنجان كمية قليلة من الزيت ، ثم طلب من الغلام أن يحدق النظر في قاع الفنجان ثم يذكر لنا ما

يراه ، وراح الشيخ يتمتم بعبارات مبهمة بين سحائب البخور المنطلقة في الغرفة ، ولم يلبث الغلام ان قال انه يرى اشخاصا في قاع الفنجان يحملون المكانس ويكنسون الارض . وعندئذ التفت الشيخ الي وقال :

ــ ماذا يريد السيد أن يرى الآن ؟

فقلت : أريد ان ارى الارملة جيان ــ ماري بورهيت .

وهنا وضع الشيخ شيئا في مجمرة البخور ، فازدادت سحب الدخان، وعندئذ قال الغلام :

« انني أرى سيدة عجوزا راقدة على سرير ، ومرتدية ملابس سوداء سميكة ، وعلى رأسها قلنسوة بيضاء ، وجهها مجعد ، وعيناها مغلقتان ، وحول ذقنها رباطِ .والسرير موضوع في فجوة بالجدران ، وله مصاريع .

وتوقف الدكتور بورهيت عن الحديث ليقول :

ــ أي ان الغلام وصف السرير التقليدي المعروف في بريتاني .

ــ ثم عاد الى حديثه عن التجربة العجيبة فقال :

ــ واستطرد الغلام في أقواله فقال « انني ارى اربعة رجال يقبلــون حاملين صندوقا طويلا ، وهم يرتدون ملابس سوداء وقبعات بيضاء . وأرى سيدات يبكين . وهناك رجل متسربل بالبياض وفي كفه صليب كبير . ولمــا خلع الرجال قبعاتهم ركعوا على ركبهم ... »

ومرة أخرى توقف الدكتور بورهيت عن الحديث ليقول :

ــ وأخذ الغلام يصف الجنازة التقليدية لسكان بريتاني ، ومن ثم علمت ان والدتي ماتت . وأعجب ما في الامر اني تلقيت بعد عشرة ايام رسالة فحواها ان والدتي ماتت في اليوم الثامن من شهر اكتوبر ، وهو نفس اليوم الذي وصف فيه الغلام موكب جنازتها .

وهنا قال أوليفر هادو لآرثر :

ـ ما رأيك في هذا ؟

ـ لا شيء .

ـ حسنا ! هل تؤمن بتحضير الارواح ؟

ـ طبعا لا .

ـ اذن ما رأيك في اني استحضرت روح أبي بعد وفاته بعام ؟

فهتفت سوزي قائلة :

لماذا ؟!

ـ كنت في رحلة بعيدة عندما توفي ابي ، ولما عدت قيل لي ان ابي كان يريد ان يقول لي شيئا خاصا بي ، وهو على فراش الموت ، ولكنه لم يستطع بسبب حالته المرضية التي كان يعانيها ساعة الاحتضار ، ولم يهدأ لي بال حتى تعلمت طريقة تحضير الارواح ، واستطعت بعد عام أن أستحضر روحه لاعرف ماذا كان يريد أن يقول لي .

وعادت سوزي تقول :

ـ وماذا قال لك ؟!

ـ « قال : كنت أريد ان اقول لك يا أوليفر ان تشتري عددا كبيرا من أسهم شركة اشاتتيز لان ثمنها سيرتفع في « البورصة » واشتريت كمية من هذه الأسهم فعلا ، ولكن أبي كان دائما سيىء الحظ في هذا النوع من المضاربة ، ومن ثم اخذت اسعار هذه الاسهم في الهبوط باستمرار حتى اضطررت الى بيع ما أملكه منها بخسارة كبيرة . وقد فهمت من هذا ان سوء الحظ يطارد الانسان حتى بعد انتقاله الى العالم الآخر » .

وانفجرت سوزي ضاحكة ، وهز آرثر كتفيه في ضيق ، لانه لم يستطع ان يتأكد ، هل أوليفر هادو جاد ، أم مدع ، أم انه يسخر من الجميع .

الفصل السادس

المعركـة

في صباح اليوم المحـدد لتناول اوليفر هـادو الشاي مع سوزي ومرجريت في مرسمهما ، تلقى آرثر من صـديقه فرانك هاريل ردا على رسالته بشأن ذلك الشاب العجيب ، أوليفر . ولشد ما كانت دهشة آرثر حين أكد له فرانك هاريل ان اوليفر ينحدر فعلا من اصل عريق ، وانه التحق بجامعة اكسفورد بعد ان اتم دراسته في كلية ايتون الارستقراطية ، وأنه جاب مختلف انحاء العالم ، وان الرحالة الالماني والصياد المشهور برهارت اصدر كتابا عن مغامراته ذكر فيه ان زميله الانجليزي اوليفر هادو قتـل ، ذات مرة ، ثلاثةاسود بثلاث رصاصات متتابعة ، وانه طارد اسدا جريحا في قلب الغابة رغم ما ينطوي عليه هذا من خطر شديد .

واستطرد فرانك هاريل في وصفه لشذوذ تصرفات اوليفر اثنـاء دراسته بالكلية ، وخلاصة هذا الوصف ان الطلبة كانوا يأتنسون بأحاديثه ويقبلون على مجالسه ، رغم نفورهم منه وكراهيتهم له . ولعل التفسير الوحيد لهذا التناقض انه كان يستهويهم بأحاديثه المشوقة ، وبطريقته الفذة في الالقاب ، وجذب انتباه السامعين بتهكماته وسخرياته ومغامراته ووفرة اطلاعه ، وغرابة الموضوعات التي يخوض فيها، وكان ينفرهم ويثير كراهيتهم بميلهم الغريزي الى الشر والى استهانته بالفضائل واستخفافه بكل المقدرات الروحية في القلب الانساني .

واختتم فرانك هاريل رسالته بقوله :

« .. وهو في جملته شاب غريب الاطوار ، بالغ الشذوذ . واعترف اني لم أستطع يوما ان افهم حقيقة امره ، هل هو جاد في مزاعمه عن قدرته السحرية ، أم هو رجل يعيش في الحياة ساخرا من نفسه ومن كل شيء . ولهذا فاني لن أدهش حين أسمع ان شيئا غريبا حدث له او منه ، ولكنني أنصحك بأن تفر منه كما يفر السليم من الاجرب . انه لا يعرف معنى الصداقة ولا يعترف بها . وانما هو مفتون بالخداع ، والغدر ، والخيانة . وهو اذا قدر لا يعفو ، واذا عادى لا يرحم » .

وهز آرثر كتفيه ، ثم قرأ الخطاب مرة اخرى ، وعندما فرغ من قراءته أسرع ووضعه في مظروفه وأرسله ـ دون ان يعلق على ما ورد فيه ـ مع ساع خاص الى سوزي بويد آملا ان تغير رأيها وترسل بطاقة اعتذار عن دعوتها لاوليفر ، بعد ان تعرف حقيقة امره ، ولكنه لم يلبث ان فوجىء ببطاقة منها تقول له : انها ، رغم كل شيء ، ستستقبل اوليفر هادو في الموعد المحدد ، اي في الخامسة بعد ظهر اليوم نفسه .

*

وقبيل الموعد بساعة ، أرسل هادو الى مسكن مرجريت وسوزي باقة فاخرة من اجمل وأندر الازهار . ومن ثم أحس آرثر بالخجل والاستياء حين رأى هذه اللفتة البارعة من هادو ، وقد شعر ان الواجب كان يحتم عليه أن يكون هو السباق الى مثل هذا .

وقد اعتذر لمرجريت عن تقصيره هذا بقوله :

ـ انني آسف جدا ، لا شك انك تعتبرينني انسانا لا يعرف اصول المجاملات .

وابتسمت مرجريت وضغطت على يده بيديها وقالت :

ــ أعتقد انني احبك لانك لا تقيم وزنا لهذه التفاهات التي يظنها بعض المحبين ذات اهمية كبرى .

وابتسمت سوزي قائلة :

ــ ان مرجريت فتاة عاقلة متزنة تعرف ان الرجل حين يرسل الازهار ، فهذا يعني انه كثير الاتصال بالنساء الجميلات .

وجلس آرثر بجانب مرجريت وهو يشعر بالراحة والرضا في ذلك المرسم الانيق الجميل الذي تزينه اللوحات الكاملة والناقصة ، والستائر الحريرية البهيجة الالوان ، والمقاعد الانيقة ، والمدفأة البديعة التي تملأ الجو بالدفء والامن .

وكانت سوزي قد رفعت الكلفة بينها وبين آرثر على اعتبار انها فتاة عادية الجمال ، فاتها قطار الزواج ، فلا خوف منها اذا هي ضحكت مع شاب مهذب مثل آرثر وداعبته ، وكان هو في نظرها مجرد عاشق مفتون فاقد الصواب لفرط استغراقه في حب مرجريت . وكانت في قرارة نفسها تعجب كيف يقع رجال اكفاء نوابغ واثقون مثل آرثر في غرام فتيات مثل مرجريت ليس لهن من المميزات غير الجمال الصارخ وحده !

ان سوزي ، كانسانة ، لم تستطع ان تتمالك نفسها من الشعور بالحسرة ، فقد رأت آرثر ، بعد ان عرفت قوة اخلاقه ، ونبل عواطفه ، وصدق مشاعره ، ورقة احاسيسه ، هو الانموذج الكامل للشباب الذي تتمنى الزواج به كل فتاة عاقلة متزنة لا تغرها المظاهر ، ولا جمال الوجه .

وقالت لنفسها ، وهي تختلس اليه النظر :

ــ آه لو ان الحظ اسعدني بشاب كهذا يحبني ، اذنْ لاحسست انني أعيش في الجنة التي تحدثت عنها الاديان !

وأحست بلذعة ألم في صميم قلبها حين رأت ان آرثر لا يكاد يحس

بوجودها ، وهو جالس يمسح على رأس كلب ابيض صغير فوق ركبتيه ، ويتبادل الحديث مع الدكتور بورهيت ، ولا يرفع عينيه عن مرجريت ، وهي تعد الشاي .

وبينما كان الكلب الصغير ينتقل من ركبتي آرثر الى ركبتي الدكتور بورهيت اذا بطرق خفيف على الباب ، فنهض آرثر ليفتحه ، وتبعه الكلب الصغير ، فاذا بالطارق اوليفر هادو ، وحرصت سوزي على أن ترى مـاذا سيحدث للكلب عند رؤيته للوافد الجديد ، ولشد ما كان عجبها حين رأته ينكمش على نفسه ، ويضع ذيله بين قائمتيه الخلفيتين ، ثم يتراجع في خوف الى اقصى ركن في الحجرة ، وهو لا يكف عن النظر الى وجه اوليفر في فزع واضح بالرغم من ان اوليفر لم يكن يراه او يحس به .

وبعد ان رحبت سوزي به ، اخذت مرجريت تعرض عليه اعمالهـا الفنية ، ومرة اخرى ادهش اوليفر الجميع بوفرة ثقافته في هذا الميـدان الفني ، ذلك ان ملاحظاته دلت بوضوح على سلامة ذوقه ، وسعة أفقه ، وتمكنه مما يقول .

ودار الحديث بعد ذلك عن علماء الكيمياء القدماء ، وعن « حجر الفلاسفة » ، وعن المحاولات المضنية التي ضيع فيها كثير من هؤلاء العلماء حياتهم لتحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . او لاكتشاف ما يسمى «بأكسير الحياة» الذي يطيل العمر ، ويمنع الشيخوخة عن البشر .

وكان الدكتور بورهيت — في الواقع — هو الذي يقود الحديث ، ويتحدث بافاضة عن بعض مشاهير هؤلاء العلماء ، وتفاصيل التجارب التي قاموا بها في مختلف ميادين الكيمياء القديمة . وأخيرا قال آرثر بصوته الذي ينم عن الاستخفاف بهذا الموضوع عادة :

— ان هؤلاء العلماء في رأيي اما انهم كانوا افاقين مشعوذين او اغبياء حمقى ، لانهم حتى لو نجحوا في تحويل المعادن الى ذهب ، فماذا بعد ذلك؟!

ان الذهب نفسه يصبح كالتراب ، وكل ما في الامر ان تحدث سلسلة من الاضطرابات والارتباكات في مختلف انحاء العالم .

وهنا قال أوليفر هادو الذي كان صامتا طيلة هذه المدة :

ــ اذن فأنت تعترف بأن هذه الابحاث لون من ألوان الحماقة واللغو ؟

ــ طبعا !

ــ هل خطر لك ان ذلك الباحث عن الذهب ، انما هو يبحث في الواقع عن القوة والنفوذ والسلطان ؟ انه لا يريد الذهب لذاته ، وانما لانه سيضع بين يديه امكانيات لا حدود لها ولا قيود . ففي استطاعة الرجل الاول الذي سيتمكن من تحويل الحديد مثلا الى ذهب ان يسيطر على العالم كله ، بل ان مطامعه وآماله لا تتوقف عند حد ، فاذا هي تدفعه الى ان يغزو نجـــوم السـماء نفسها .

وللمرة الاولى بدا اوليفر هادو متحمسا في حديثه ، وقد استطرد قائـــلا :

ــ وماذا يبغي الانسان في حياته اكثر من القوة وارتفاع الشأن ؟ ان القوة بكل معانيها هي الهدف الذي يسعى اليه العلماء والنوابغ ، أمـــا السعادة فهي هدف السذج والحمقى .

ثم نهض وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وعاد يقول بنفس اللهجة الجادة المفعمة بالحماس :

ــ هل تعرف ان بعض علماء الكيمياء القدامى كانوا يعيشون على أمل النجاح في خلق « الخلية الحية » . وأستطيع ان أذكر لك عشرة مراجع ، على الاقل ، تؤكد ان بعضهم استطاع ان « يخلق » في زجاجة نوعا مـــن المخلوقات الرهيبة التي لا يمكن الا ان تعيش في الماء ، وتتغذى بدمـاء البشـــر .

وهنا قاطعه آرثر قائلا :

ــ اذا افترضنا صحة هذا القول ، فما جدوى خلق مثل هذه المخلوقات الرهيبـــة ؟

فهتف هادو بحرارة قائلا :

ــ جدواها ؟! اية احساسات يمكن ان تنفعل بها النفس الانسانية حين ينجح الانسان في الوصول الى ذلك السر الخالد ، سر الحياة !! أيـــة انفعالات تملأ النفس حين يرى العالم الباحث مخلوقا ينبض بالحياة أمامه بعد ان صنعه من مواد ميتة !! لقد شهد هذه التجربة وسجلها في الكتب والمذكرات رجال معروفون مثل الكونت ماكس ليمبرج ، والكونت فرانك جوزيف فون ثان ، وغيرهما كثيرون ، بل ان في عصرنا هذا علماء كرسوا حياتهم داخل المعامل لخلق البروتوبلازما الحية من عناصر ميتة ، لخلـــق المادة العضوية من مادة لا عضوية . وأنا اعرف كل ما يعرفونه في هـــذا الشأن ، ولكنني امتاز عليهم بأني اعرف ايضا معظم الابحاث والتجارب التي أجراها علماء الكيمياء القدامى ، فلماذا لا أمزج بين العلم القديم ، والعلم الحديث لتحقيق هذا الهدف ؟ انني لا اعرف ماذا ستكون النتيجة . فقد تكون شيئا عجيبا مثيرا . وان هذه الفكرة احيانا تستبد بعقلي اياما وليالي متوالية ، فكرة القدرة على رؤية المادة الميتة تستجيب امام قوتي السحرية ، بمعنى آخر ، أن أكون شبيها بالله !

ثم ارسل ضحكة رهيبة ملتوية جعلت مرجريت ترتعد فجأة ، ثم ألقى بجسمه الضخم على المقعد ، وحاول ان يخفي ملامح وجهه في ظلال الضوء ، ولكن عينيه كانتا حمراوين بالدماء الفائرة . وخطر ببال آرثر فجأة ان الشاب مجنون ، أو على الاقل يعاني من حالة عقلية خاصة .

وبعد ان ساد الصمت برهة ، نهض الدكتور بورهيت لينصرف فصافح سوزي ومرجريت ، وفتح آرثر له الباب ، وتلفت الرجل العجوز حوله

باحثا عن كلب مرجريت الاليف ، وهو يقول :

ــ يجب ان أودع صاحبنا الوديع اللطيف قبل ان أمضي .

وكان الكلب قد قبع في مكانه ساكنا حتى لم يعد يشعر به احد ، ولما عثرت مرجريت عليه في ركن الغرفة ، قالت له آمرة :

ــ هلم يا كوبر . تعال .

وتقدم الكلب ببطء وقبع عند قدمي مرجريت في شيء من الخوف والجزع ومن ثم قالت له مرجريت :

ــ عجبا ! ماذا بك يا كوبر ؟ ليس هذا شأنك عادة !

فقال هادو وهو يرسل ضحكة غليظة خشنة :

ــ انه خائف مني .

ــ كلام فارغ !

وانحنى الدكتور بورهيت وراح يمسح على رأسه ، ورفعت مرجريت الكلب ووضعته على المائدة وهي تقول :

ــ والآن ! كن هادئا مطيعا !

وانصرف الدكتور بورهيت باسما ، وأغلق آرثر الباب وراءه ، وفجأة انقض الكلب ، كأنما تقمصته روح شريرة ، وانشب انيابه في يد أوليفر هـــادو .

وصاح أوليفر متوجعا ! ونفض الكلب عنه ثم ركله بعنف في بطنه ركلة جعلت الكب يصرخ من الالم ، ثم يرقد على الارض ساكنا برهة كأنما فقد الحياة . وهتفت مرجريت في فزع واستنكار ، واستبد الغضب العنيف بآرثر فاذا به يفقد صوابه ، ويصيح لاعنا أوليفر ، ثم يوجه اليه لكمة رهيبة

ألقت به ــ رغم ضخامة جسمه ــ الى الارض . وازداد غضب آرثر اندلاعاً، فأمسك بالشاب من عنقه ، ورفعه عن الارض ، ثم ضربه مرة بعد مرة حتى تهالك على أرضية الغرفة بلا حراك ، وبدون ادنى مقاومة . واستدار آرثر الى مرجريت وراح يهدىء من خوفها ويمسح على رأس الكلب الصغير ويفحص اصابته .

ولم تتمالك مرجريت نفسها من النظر الى هادو وهو جالس على الارض في سكون . وكانت وسوزي تتبادلان نظرات الدهشة من هذا الموقف الذليل الذي وقفه ذلك العملاق الآدمي ، لماذا لم يقاوم ؟ بل لماذا لم يحاول مجرد المقاومة ؟

وما كادت مرجريت تنظر اليه حتى رأت نظراته مركزة عليها وقد أطلت منها أبشع امارات الاشتهاء والرغبة الجنسية ، ومن ثم أشاحت بوجهها في سرعة ، وهي ترتعد من فرط النفور .

وبعد لحظات، كأنها الشهور ، تحامل هادو على نفسه ، ثم نهض وقال:

ــ اني أعتذر اليكم عما حدث . فان عضة الكلب أفقدتني الصواب من فرط الالم وجعلتني أركله بكل هذه القسوة . اني شديد الاسف . وأعتقد أن لآرثر الحق فيما فعله بي . فأنا أستحق ما نلته من عقاب .

وفوجىء الجميع بهذا الاعتذار الذي لم يكن يتوقعه احد ، وكان يوجه الحديث الى مرجريت التي قالت بصوت خافت :

ــ أرجوك .. أرجوك ان تنصرف الان اذا سمحت .

واستدار الى آرثر وأردف قائلا :

ــ أحب ان اخبرك انني لا أحمل لك حقدا او ضغينة بسبب ما فعلته معي ، فأنا ادرك سر غضبك ، وأعترف به .

ولم يجب آرثر بشيء ، ولمحت سوزي شبح ابتسامة عريضة على شفتي هادو ، ونظرة أشد رهبة في عينيه وهو ينحني ليتناول قبعته ، وينصرف .

الفصل السابع

الخدعة الرهيبة

لم تستطع سوزي أن تقنع نفسها بأن هادو كان مخلصا في اعتذاره، ذلك ان اسرافه في الذلة والخضوع كان مثيرا للشك. انها لم تستطع ان تنسى تلك الابتسامة الرهيبة التي ومضت على شفتيه قبل ان ينصرف، وتلك النظرة الحاقدة التي لمعت في عينيه وأيقنت في اعماق نفسها ان هادو ينوي ان ينتقم من آرثر، على طريقته الخاصة، انتقاما رهيبا.

ولما أفضت بمخاوفها الى آرثر لتحذره، ضحك في استخفاف وقال:

ـ انه كالطبل الاجوف. فلو ان به ذرة من الرجولة وقوة الشخصية لما تركني اضربه، كالكلب، بهذا الشكل دون ان يدافع عن نفسه.

وكان جبن هادو قد ضاعف من اشمئزاز آرثر منه واحتقاره له، ومن ثم قال مستطردا:

ـ ماذا في وسعه ان يفعل؟ هل سيسقط على رأسي حجرا؟ أم سيطلق الرصاص علي، ويدفع حياته ثمنا لجريمة كهذه؟ انه ليس من الحماقة بحيث يرتكب خطأ كهذا!

وشعرت مرجريت بالبهجة لان هذا الحادث سوف يريحهم جميعا من ذلك الشاب الثقيل البغيض. ولما رأته في الطريق، بعد ذلك بيومين، يرفع قبعته لتحيتها، تجاهلته، وسارت في سبيلها.

وأخذت تتبادل الحديث مع آرثر عن يوم زواجهما، وكانت قد شعرت

انها شبعت تماما من باريس ، وانها تهفو الى ان تبدأ حياة جديدة في ظــل حبها لآرثر . ولاح لها فجأة ان هذا الحب قد تضاعف في الايام الاخيرة وملأ نفسها بالبهجة كلما فكرت في ألوان السعادة التي ستملأ بها حياة آرثر .

وبعد يوم أو يومين ، تلقت سوزي البرقية التالية :

« أرجو ان تقابليني في محطة جيردي نورد الساعة الثالثة ــ نانسي كلارك » .

وكانت نانسي كلارك صديقة قديمة لسوزي بويد ، وقد بدا لها من هذه البرقية ان نانسي ستصل الى باريس في ذلك اليوم بعد الظهر . ورفعت سوزي عينيها الى صورة كبيرة لنانسي تحمل توقيعها الكبير الواضح ، موضوعة فوق سطح المدفأة . وقالت اخيرا :

ــ ينبغي ان امضي لاستقبالها حتى لا تستاء مني ، فاني لم أرها منذ سبعة أشهر .

وكان الاتفاق قد تم بينهما على أن تتناولا الشاي في الجانب الآخر من النهر ، ولكن الرحلة الى المحطة كانت طويلة بحيث لم يكن في مقدور سوزي ان تعود الى المسكن قبل موعد الشاي ، ولهذا اتفقنا على اللقاء في المشــــرب .

غادرت سوزي المسكن في الثانية بعد الظهر .

وفي نحو الرابعة ، غادرت مرجريت مسكنها لتمضـــي الى مشرب الشاي في الجانب الآخر من النهر ، وفيما هي تعبر فناء البيت ، فوجئت ــ لاستيائها ــ برؤية اوليفر هادو يقبل ببطء . وبدا انه لم يرها ، ولكنه توقف فجأة ووضع يده على قلبه ثم تهاوى بكل ثقله على الارض . وأسرعت حارسة البوابة التي لم يكن هناك احد غيرها بالقرب منه ، وهتفت في فزع

وهي تركع بجانبه ، وأخذت تتلفت حولها التماسا للنجدة . فلما رأت مرجريت صاحت قائلة :

ـ اسرعي يا آنسة ، أغيثينا .

واضطرت مرجريت الى تلبية النداء ، وكان قلبها يضطرب بعنف شديد وهي تنظر الى أوليفر الذي بدا كالجثة الهامدة .ونسيت نفورها منــه ، ثم ركعت بجانبه وفكت أزرار ياقته ، وعندئذ فتح عينيه وقد ارتسمت على وجهه امارات الالم والعذاب .

وقال بصوت متهدج بالبكاء :

ـ أرجوك بحق الله ان تدخليني في مكان مريح ، فاني أحتضر ، ولا أحب ان اموت في الطريق .

وأحست بالعطف عليه ، ورأت انه من غير اللائق ان تدخله في الجحر الذي تعيش فيه حارسة البوابة ، ولكنها استطاعت ان تتعاون مع هذه المرأة وتمضيان به الى المرسم الملحق بمسكنها . وهناك قالت له بعد ان تهالك في ألم على المقعد :

ـ هل آتي لك ببعض الماء ؟

ـ ارجوك ان تناوليني انبوبة الاقراص من جيبي .

وبعد ان ابتلع قرصا ، تنهد في ارتياح ، وقال وهو يلهث :

ـ انني آسف لما سببته لك من ازعاج ، والواقع اني اعاني من مرض في القلب ، وفي أحيان كثيرة اكون على حافة الموت .

ـ يسرني اني استطعت مساعدتك .

وظل جالسا يلهث في مقعـــده وكأنما هو عاجز عن النهوض ، واستدارت هي بظهرها اليه ، وتناولت كتابا وراحت تقرأ . ولكنها لم تلبث

أن سمعته يقول في صوت اكثر ثباتا :

ـ لا شك انك تكرهينني الآن بسبب ازعاجي لك .

وتلاشى فورا احساسها الطارىء بالعطف عليه والرثاء له ، ومن ثم قالت بصوت كله جفاء وبرود :

ـ انني ما كنت لأفعل اقل من هذا لاي كلب مريض في الطريق .

ـ أفهم من هذا انك تريدين مني ان أنصرف .

ونهض ، وتحرك نحو الباب مترنحا ، ولكنه أرسل آهة ألم وتوجع ، ثم تعثر وسقط على ركبتيه ، وسرعان ما وثبت مرجريت اليه وهي تلوم نفسها على هذه الكلمات القاسية التي وجهتها اليه وهو في هذه الحالة المؤلمة ، ومن ثم قالت بصوت متهدج بالالم والندم :

ـ أوه ، ارجوك ، يمكنك ان تبقى هنا كما تشاء حتى تسترد قوتك ، انني لم أكن اعني جرح مشاعرك .

وسحب نفسه بمشقة الى المقعد ، وراحت هي تبذل جهدها للعناية به ارضاء لضميرها ، فقدمت اليه قدحا من الماء ، ولكنه رفض تناوله ، وكأنما لا يريد ان يثقل عليها . فألحت عليه قائلة في رجاء :

ـ ألا تريد ان اؤدي لك اية خدمة ؟

فقال لاهثا :

ـ لا شيء اكثر من السماح لي بالبقاء هنا حتى أسترد قواي .

ـ انني ارجو ان تبقى كما تريد .

وبعد برهة من الصمت الثقيل ، قال :

ـ هل يمكن ان تغفري لي ما ارتكبته في حقك ذلك اليوم ؟

وأجابت مرجريت دون أن تستدير اليه :

ــ وهل يهمك كثيرا ان أغفر أو لا أغفر ؟!

ــ انك لا تعرفين الرحمة ! قلت لك ان ألم العضة هو الذي أفقدني السيطرة على أعصابي ودفعني الى ركل الكلب بقسوة ، ولكنني لم ألبث ان ندمت على ما فعلت . ألا تعتقدين أنه كان من العسير على كرامتي أن أعتذر رغم كل ما نلت من ضرب واهانة ؟

ــ انني أرجوك ألا تتحدث في هذا الموضوع ، فاني أريد ان أنسى هذا المنظر الرهيب .

ــ لو تعلمين مبلغ ما أنا فيه من وحدة وبؤس لشعرت نحوي ببعض الرحمة .

وأحست من نبرات صوته أنه مخلص في حديثه ، واستطرد هو يقول :

ــ انك تعتقدين انني مشعوذ دجال لاني أهدف الى أشياء بعيدة عن مفهومك . ولكن الحقيقة هي أنك لا تحاولين ان تفهميني ، ولا تحاولين أن تتيحي لي الفرصة لأشرح لك كيف اني أريد ان أبذل حياتي للوصول الى أعظم هدف في الوجود .

فقالت هامسة :

ــ لكل انسان رأيه في الحياة .

وبعد فترة من الصمت ، عاد ليقول بصوت ناعم رقيق :

ــ انك تنظرين الي باحتقار وازدراء . بل لقد حاولت ان تقنعي نفسك بتركي في الشارع لأموت ، على أن تمدي الي يد المساعدة . ولو لم تغلب عليك طبيعتك الرحيمة الحانية لقضيت نحبي في تلك اللحظة .

ومرة أخرى قالت بصوت خافت :

ـــ ان موقفي منك لا ينبغي ان يهمك في قليل او كثير .

ولم تدر لماذا كان صوته في هذه المرة يلمس أوتار قلبها ، فاذا به ينبض في عنف وهي تسمعه يقول :

ـــ بل يهمني كل الاهمية . فليس هناك أقسى علي من التفكير في احتقارك لي . فأنا أشعر بطهارتك ونبل عواطفك ، وهذا الشعور يزيد احساسي بحقارتي ، لاسيما حين أراك تشيحين بوجهك عني كأنني مخلوق نجس !

وهنا استدارت بمقعدها نحوه قليلا ، ونظرت اليه . عندئذ لم تتمالك نفسها من الدهشة حين رأت التغيير الكبير الذي طرأ على مظهره ، فلم تعد غلظته الرهيبة تثير في النفس التقزز والنفور ، كما أطلت من عينيه نظرات مختلفة ، نظرات رقيقة مظللة بالدموع ، وكان فمه يلتوي بالالم النفسي العنيف ، حتى خيل الى مرجريت أنها لم تر في حياتها مثل هذه الامارات من التعاسة الرهيبة على وجه رجل غيره . ومن ثم أحست بلواذع من الندم الشديد تحز في ضميرها ، فقالت :

ـــ انني لا أريد ان أقسو عليك .

ـــ سوف أنصرف الآن ، وهذا خير ما أرد به جميلك اليوم .

وكان ينطق بهذه الكلمات في مرارة وذلة بالغة جعلت الدماء تصعد الى وجهها ، ولم يسعها الا ان تقول :

ـــ لقد طلبت منك ان تبقي ، ولكن يحسن ان نتحدث في موضوعات أخرى .

وخيم الصمت عليهما لحظات طوالا ، وبدا على أوليفر انه لم يعد يرى مرجريت وهو يركز انظاره على صورة « الجيوكاندا » المشهورة ، وفجأة

راح يترنم بأبيات من الشعر المنثور الذي وصف به والتر باتر روعة جمال هذه اللوحة الرائعة ، وكانت الكلمات تنثال من شفتيه في حرارة وجمال حتى ليخيل لمن يسمعه انه متفان في مناجاة حبيبة تنبض بالحب والجمال أمام عينيه :

« هذا هو الوجه الذي تجمعت فيه محاسن الوجود ، وهذه هي الجفون المسترخية التي تنم عن الرغبة في الاسترخاء . وهذا هو الجمال الذي ينبثق من ينابيع نفس صافية ليلون البشرة بأبهى بهاء » .

وعلى هذا النحو راح يترنم بالشعر المنثور ، وبصوت مفعم بالرقة والعاطفة والحرارة ، ومرت اللحظات متتابعة حتى لم تعد تشعر مرجريت بمرور الوقت بعد أن أحست كأن عالما جديدا من الجمال والبهاء قد تفتح أمامها او كأن كأسا من رحيق الفن الجميل قد قدمت اليها لتضمن لها خلود الذكر ، او كأن قبضة سحرية تطبق عليها ، فلا تستطيع منها حراكا .

وتوقف أخيرا عن حديثه المترنم ، ثم قال :

ـ أريد ان أقدم اليك شيئا نظير ما أسديت الي من جميل اليوم .

ثم نهض الى البيانو ، وطلب منها ان تجلس على مقعد بجانبه ، ولم يخطر ببالها لحظة ان تعصي أمره ، فجلست ، وراحت تنظر اليه وهي لا تصدق عينيها حين رأت كيف تتحرك أصابعه الغليظة بخفة الفراشة على أوتار البيانو ، وكادت لا تصدق أذنيها وهي تسمع تلك النغمات العجيبة الفاتنة تنساب من هذه الاصابع الكبيرة الحجم ، الرشيقة الحركة ، التي بدت وكأنها طيور سماوية بديعة ترفرف في رواح وغدو على الاوتار .

ومرة اخرى احست مرجريت بهذه النشوة العجيبة ، نشوة الانسان الذي تفتحت امامه ابواب عالم من الجمال والسحر .

وبعد ان توقف هادو عن العزف ، ظل الاثنان مكانيهما لا يريمان

واخيرا بذلت مرجريت جهدها لتسيطر على مشاعرها ، وتسترد طبيعتها ، ثم قالت بخفة :

ــ بدأت أعتقد الآن انك ساحر حقا !

فرفع عينيه اليها وركز نظراته في عينيها ، وقال :

ــ ان في مقدوري ، أن أجعلك ترين اشياء عجيبة لو أتحت لي الفرصة.

ــ لا أظن انك تستطيع ان تجعلني أومن بأعمال السحر !

ــ ان الساحر الحقيقي يستطيع ان يسيطر على عناصر الطبيعة ، بل على النجوم في أفلاكها .

وهنا همست قائلة ، وهي لا تكاد تشعر أنها تتحدث :

ــ ان كنت ساحرا حقا ، فاثبت لي هذا بالدليل الحاسم !

فنظر أوليفر الى وعاء صغير أنيق من النحاس موضوع على سطح المدفأة ، وكانت به كمية من الماء لترطيب جو المرسم . وتقدم الشاب الى الوعاء الصغير ، وتناول من جيبه علبة صغيرة وفتحها وأخذ منها ، بين اصبعيه كمية ضئيلة من مسحوق أزرق ، ثم وضعها في الماء . ولشد ما كانت دهشة مرجريت حين رأت ألسنة اللهب الازرق تندلع في الماء ، ويصدر عنها أزيز عجيب ، ويتصاعد منها دخان خفيف له رائحة عطرية مسكرة . وبعد أن انطفأت النار ، نظرت مرجريت الى الوعاء ، فلم تجد فيه قطرة واحدة من الماء ، فمسحت بيدها على جبينها وهي تغمغم لنفسها :

ــ عجبا ! لقد احترق الماء وجف تماما ! ان هذا مستحيل !

وقال هادو ، وهو يحملق في وجهها :

ــ هل يمكن ان يخطر ببالك وجود مادة أفظع من هذه في القضاء على العالم كله ؟! ان الامر الآن يقتضي وقتا طويلا وأموالا طائلة في سبيل

الحصول على كمية ضئيلة منها . ولكن اذا أمكن تحضيرها على نطاق واسع وبكمية كبيرة ، فيمكنك ان تتصوري كيف يكون الحال اذا اطلقناها لتحرق كل ما في العالم من ماء ورطوبة ونبات ! ان الذي يعرف سر تحضير هذه المادة ، يستطيع ان يجعل العالم يجثو عند قدميه ، واني لأشعر في بعض الاحيان بالرغبة الشديدة للفرجة على العالم وهو ينهار بهذه الطريقة .

وارتعدت مرجريت بعنف ، ومع هذا لم يخطر ببالها ان الرجل مجنون، فقد توقفت عن الحكم عليه ، ورأته يتناول كمية قليلة من ذلك المسحوق ويضعها في الوعاء ، ثم أخرج من جيبه قبضة من نبات يشبه أوراق الشجر الجاف ، ووضعها على ذلك المسحوق وسرعان ما تصاعد الدخان بسبب احتراق آخر قطرات من الرطوبة باقية في ذلك النبات الجاف . وسعلت مرجريت وأحست بمشقة في التنفس ، وأرادت ان تطلب منه أن يتوقف عن هذه التجارب ، ولكنه أمرها قائلا :

ـ انظري الى قاع الوعاء واستنشقي هذه الرائحة بعمق .

ووجدت نفسها تطيع امره وكأنما انسلت منها ارادتها تماما ، وأحست بالظلام يغمرها ، وحاولت ان تصيح ، ولكنها لم تستطع ان تطلق نبرة صوت واحدة ، وخيل اليها ان عقلها قد توقف عن التفكير ، وان جسمها قد شل عن الحركة ، وان هادو قد أسدل بينها وبين العالم حجابا سميكا .

وأخيرا سمعته يقول لها وكأنها في حلم :

ـ لا تخافي ، افتحي عينيك .

ولما فتحت عينيها رأت ظلام الليل قد انتشر ، ولكنه ليس ذلك الظلام المهدىء للاعصاب ، المريح للنفس ، وانما ظلام رهيب يملأ الوجدان بالخوف والاضطراب ، ويفعم العقل بصور غريبة عجيبة رهيبة مليئة بالاشباح الراقصة ، وبالطبول المدوية ، وبالصيحات المنغمة ، وبالضحكات

الرنانة ! وكانت خلال هذا كله تحس بنار تسري في جسدها وتملأ أعماق نفسها برغبات جنسية عارمة .

وتنبهت لنفسها اخيرا حين شعرت بأن اوليفر يمسك بيديها ويقول لها:
ــ لا داعي لان تخافي .

ومسحت بيدها على جبينها ، وهي لا تزال تشم ذلك العطر النفاذ المنساب من ذلك النبات المحترق ، ومرة اخرى سمعته يقول :

ــ هل أوقد الشمعدان ؟!

وأشعل عود ثقاب وأوقد الشمعدان الفضي الموضوع على البيانو . ورفعت مرجريت عينيها الى أوليفر ، وتبينت أنها كانت بجانبه خلال هذه الساعات ، فغمرها احساس عنيف بالعار جعلها تهتف به قائلة :

ــ اذهب ، أرجوك بحق السماء ان تذهب .

ونظر اليها برهة وقد رفت على شفتيه هذه الابتسامة الغامضة التي رأتها سوزي تتسلل الى وجهه بعد الذي أصابه على يدي آرثر في آخر مرة زار فيها اللرسم .

وقال ببطء :

ــ عندما تريدينني فسوف تجدينني في شارع فيجيرود رقم ٢٠٩ ، ان مسكني بالطابق الثالث ، شقة رقم ١٢ .

ولم تستطع أن تجيب بسبب استغراقها في الاحساس بالعار . ولم تعره اهتماما وهو يكتب العنوان على قطعة من الورق ، ثم ينصرف بهدوء .

وتهالكت الفتاة في مقعدها وأخفت وجهها بين راحتيها ، وظلت على هذه الحال حتى سمعت صرير مفتاح سوزي وهي تفتح الباب وتدخل، فوثبت واقفة ، وتراجعت بظهرها الى الجدار ، وبدت في هيئة المتهم المدافع

عن براءته ، وكانت سوزي في حالة انفعال شديد جعلها لا تلاحظ اضطراب مرجريت . وقد قالت لها في عتاب :

ـ لماذا بحق السماء لم تحضري الى المشرب ؟!

فقالت مرجريت وهي تحاول ان تسيطر على اعصابها :

ـ كنت أشعر بصداع مؤلم .

وتهالكت سوزي على اقرب مقعد اليها ، ووجدت مرجريت نفسها تسألها :

ـ هل استقبلت نانسي عى المحطة ؟

ـ انها لم تصل اطلاقا ، ولست أدري لماذا ! لقد انتظرت قطار الساعة الثالثة ، ثم قطار الساعة الرابعة ، ولكنها لم تأت .

ومضت سوزي الى رف المدفأة وتناولت البرقية وراحت تفحصها بامعان ، وهتفت في دهشة :

ـ ما أغباني ! ان هذه البرقية مرسلة من شارع دي ليتر الذي لا يبعد عن هذا المكان الا مسيرة عشر دقائق .
وهزت كتفيها واردفت قائلة :

ـ لا شك انها دعابة سخيفة من شخص سخيف ، ولو كنت مرتابة بطبيعتي لظننت انك أرسلت هذه البرقية ليخلو لك الجو هنا مع آرثر !!

وأدركت مرجريت عندئذ أن اوليفر هادو هو المسؤول عن هذا كله ، ومعنى هذا أنه اصطنع المرض لكي ينفرد بها في المرسم . وأخيرا قالت لسوزي :

ـ لو أردت الانفراد بآرثر هنا ، لطلبت منك هذا بصراحة .

ـ ألم يحضر لزيارتك أثناء غيبتي ؟

ـ لا . لم يحضر احد !!

لقد انزلقت الكذبة منها رغما عنها قبل ان تفكر فيما ينبغي ان تقول . وأخذ قلبها يخفق بعنف ويرسل الدماء حارة الى وجهها . وعادت سوزي فنهضت لتشعل سيجارة لتهدىء اعصابها ، وعندئذ وقعت نظراتها علــى الورقة التي كتب فيها أوليفر هادو عنوان مسكنه فتناولتها وقالت في دهشة وتســـاؤل :

ـ عنوان من هذا بحق السماء ؟

ـ لا أعـــرف .

وأعدت مرجريت نفسها للاجابة على المزيد من أسئلة سوزي ولكن هذه هزت كتفيها وأعادت الورقة الى مكانها وأشعلت السيجارة ثم عادت الى مقعدها .

وازداد احساس مرجريت بالخجل ، والعار ، فقد كانت تلك أول مرة تلجأ فيها الى الكذب ، ولكن بدا ان شيئا ما ، أقوى من ارادتها ، كان يدفعها الى هذا الموقف . وأحست برغبة عنيفة للاعتراف الى سوزي بكل شيء ، ولكن تلك القوة الخفية أرغمتها على الكتمان خوفا من أن تظن بها سوزي الجنون !

وسمعت الفتاتان نقرا على الباب ، وفزعــت مرجريت من ان يكون الطارق أوليفر هادو ، ولكنها تنهدت في ارتياح عندما رأت ان الطارق ليس غير آرثر بردون . وبذلت كل جهد ممكن لتبدو أمامه طبيعية هادئة ، ولكنها عجزت اخيرا ، فانفجرت في بكاء حار أخذ يزلزل كيانها ، ويخنق أنفاسها . وأسرع آرثر فضمها الى صدره في عطف وحنان ، وهو يسألها بصوت رقيق عما بها ، وأخيرا مسحت دموعها وحاولت ان تبتسم ، وهي تقـــول :

ـــ أوه ، لا شيء ، لا شيء . انني لا أدري ماذا ألم بي !

وكان آرثر يعتقد ان للنساء بوجه عام نزواتهن التي لا يبررها المنطق السليم . واكتفى بأن راح يهدىء من نفسها ، ويسبغ عليها الشيء الكثير من حبه وحنانه . . واستكانت هي في صدره كالطفل الخائف ، وأخـــذت تقـــول :

ـــ أوه ، آرثر ، أرجوك ، لا تتركني ، انني أخشى ان يحدث شيء رهيب يفرق بيني وبينك . انني أريد الاحتماء بك ، عدني يا آرثر بأنك لن تخذلني يومـــا !

فضحك عاليا وقبل دموعها ، وحاولت هي أن تبتسم قائلة :

ـــ لماذا لا تتزوج اليوم ، بل حالا ؟ انني لا أستطيع أن أنتظر اكثر من هذا ، لاني لن أشعر بالامن الا وأنا زوجة لك .

ولكنه راح يقنعها برفق وهدوء قائلا ، انه ليس هناك أبدا ما يدعو الى تعجيل اليوم المحدد للزواج ، لان الترتيبات اللازمة لم تتم بعد ، ولان ملابسنا الجديدة لم تكن الخياطة قد فرغت من اعدادها ، فلماذا الاسراع ، والايام ممتدة أمامهما !

ورغم اقتناعها بسلامة منطقه ، فقد قالت له بصوت مفعم بالالم :

ـــ أعدك بأنه لن يحدث لك ما يسوءك أبدا .

الفصل الثامن

الانتقام الرهيب

أمضت مرجيت ليلة مضطربة ، وعبثا حاولت ان تتحرر من ذكريات تلك الساعات الرهيبة التي عاشتها مع أوليفر في المرسم ، ولكن أطياف الذكريات كانت تقتحم عليها تفكيرها آونة بعد اخرى ، واذا كيانها كله يتزلزل وهي تذكر تلك العوالم الجميلة التي تفتحت لها حينا ، وتلك الصور الرهيبة التي تراقصت امام مخيلتها حينا آخر ، ثم تلك النشوة العجيبة التي أنضجت انوثتها وأضرمت نيران الرغبات في جسدها النضير .

لقد أحست في اليوم التالي كأن بذرة ما قد انغرست في قلبها ، ولم تلبث ان تفتحت ونمت وراحت تتفرع – كألسنة النار – في عروقها ، وحاولت ان تتحرر من هذه المشاعر كلها بالاستغراق في العمل ، أو بالخروج كثيرا مع سوزي أو آرثر ، أو بالتحدث طويلا مع هذا أو ذاك من معارفها ، ولكن محاولاتها كلها باءت بالفشل .

لقد ظل النبات الرهيب الذي انغرست بذرته في قلبها ينمو ويتفرع حتى غدا كشبكة محكمة الحلقات لا سبيل الى الفكاك منها .

وفي داخل هذه الشبكة لم تجد معها غير طيف أوليفر هادو ، بجسمه الكبير ، وصوته المترنم بأجمل العبارات ، وبسحائب البخور المتصاعد من ذلك الوعاء .

وعلى الرغم من انها كانت تؤكد لنفسها انها لن ترى اوليفر مرة اخرى بعد ذلك ، الا ان رغبة خفية كانت تستبد بها وتدفعها رغما منها للذهاب الى مسكنه .

وكانت تدرك في أعماق نفسها انها لو ذهبت اليه ، فقد ينتهي امرها ، ولحكمت على سعادتها بالاعدام . ورغم هذا فقد ظلت رغبتها في الذهاب اليه تستبد بها يوما بعد يوم ، وتكاد تدفع بخطواتها في الطريق الى مسكنه.

واخيرا قررت أن تلجأ الى الدكتور بورهيت ؛ لتستنجد به ، بعد أن اشتدت بها هذه الرغبة حتى كادت تفقدها عقلها .

وذهبت الى بيت الدكتور بورهيت ، وهناك علمت أنه سافر في مهمة طبية عاجلة ، ولن يأتي الا في اليوم التالي .

وأدركت عندئذ أن الاقدار نفسها تتآمر ضدها .

وهكذا غادرت بيت الدكتور بورهيت ، وسارت في الطريق الى مسكن أوليفر ، وهي تشعر أنها في قبضة قوة لا سبيل الى مقاومتها .

وما كادت تطرق باب مسكنه حتى انتفح ووقف أوليفر أمامها ، باسما دون دهشة أو استغراب .

وأحست انها في غير حاجة لان تشرح له سبب مجيئها ، لانه أعفاها من أن تذكر شيئا ، فابتدرها قائلا :

ـ كنت أتوقع حضورك.

ثم تناول يدها ، ودخل بها مسكنا يدل كل شيء فيه على أن صاحبه لا يعرف معنى الرفاهية أو الترف ، فالاثاث كبير ثابت ، والمقاعد مرتفعة الظهور ، وليست وثيرة ، ولا مريحة ، وبعد أن أجلسها وجلس بجانبها ، جمعت هي كل قواها وشجاعتها ، وقالت له :

ـ لماذا ارغمتني على الحضور اليك ! ؟

فابتسم قائلا :

ـ انك اذن تعترفين لي بقدرتي العجيبة على تنفيذ ما ابغيه ؟

ـ كنت تعرف انني سأحضر ؟

ــ بكل تأكيد .

ــ ماذا فعلت لك حتى تجعلني يائسة الى هذا الحد ؟ أرجوك أن تدعني وشأني .

ــ انني لن أحول بينك وبين الخروج من هنا اذا شئت ، ولن ينالك اي سوء اذا قررت الانصراف الان . فالباب مفتوح .

وخفق قلبها بسرعة الى حد الالم ، وبقيت في مكانها ساكنة لا تريم ، اذ كانت تعلم انها في أعماق نفسها لا تريد أن تذهب ، فان هناك شيئا عجيبا خفيا يشدها اليه . وتوقفت هي عن المقاومة اخيرا ، وبدا ان احساسا غريبا يستبد بها ،ويتسلل الى أعماق نفسها ، ويجعلها تشعر بالخوف والنشوة معا !

وراح يتحدث بذلك الصوت الخفيض الرتيب الذيكان يثير انفعالاتها وكأنه السحر . ولم يتحدث هذه المرة عن جمال الجيوكوندا او عن سحر الفن أو عن الكتب ، وانما تحدث عن الحياة . لقد أخذ يحدثها عن أماكن في الشرق لم تطأها قدم انسان غربي حتى ان خيالها الحساس شرع يضطرم بعباراته المترنمة ، ثم تحدث اليها عن الفجر وهو ينبلـــج على مدن بعيدة مهجورة ، وعن أضواء القمة فوق الصحراء ، وعن روعة الغروب على المدن الرابضة في أحضان النيل ، وعن الشوارع المزدحمة في ساعات الظهيرة . وأخذت صور الشرق تتجسم امامها وهو يحدثها فن السجاجيد العجمية ، وعن الاسلحة الفضية المزخرفة والجواهر اللألاءة في مواطنها الاصليــة ، والبخور الفواح بأجمل الشذى ، والعطور التي تدير الرؤوس ، والحدائق الغناء ، وخلال ذلك أحست بالشذى العاطر ينساب من انفها الى قلبهــا ، ويضاعف احساسها العجيب بالخوف والنشوة .

ثم اخذت تقارن في عقلها بين الحياة الرتيبة الكئيبة مع طبيب جراح مثل آرثر في شارع هارلي بلندن ، حيث الضباب على مدار السنة ، وحيث

التقاليد الصارمة ، والقيود الآسرة ، وبين هذه الحيــاة العجيبة الغريبة ، الثائرة الفائرة ، المضيئة اللألاءة ، التي يحدثها عنها هذا الانسان العجيب . وارتعدت روحها في داخل جسمها وهي تسمعه يتحدث عن جمالها الذي من حقه ان يتمتع بالحياة ، بل بفن الحياة الأصيل ، ثم اذا بالحرارة تندلع في جسمها ، واذا بالضوء يتألق في عينيها ، واذا هي تغمغم قائلة بعد أن توقف أوليفر عن الحديث :

ـ أعتقد انني بدأت أحبك !

ومد ذراعيه ، ولفهما حول خصرها ، وضم صدرها اللاهث الى صدره العريض ، وضغط بشفتيه الغليظتين المفعمتين بالاشتهاء على شفتيها المرتعدتين الظامئتين ، وغاب معها في قبلة تجمعت فيها كل صورما سمعته بأذنيها ، ورأته بخيالها .

وأحست بجسمها كله يلتهب في هذا العناق المحموم ، ونظرت اليه في استرخاء دون أن تحس بأي خجل او عار ، ولكنه نهض فجأة ، وقال لها :

ـ الآن يجب ان تنصرفي !

وفتح لها الباب ، وانصرفت هي دون ان تنطق بكلمة ، وسارت في الشوارع وكأنما لم يحدث شيء . انها لم تشعر عندئذ لا بالندم ولا بالنفور.

❋

وأصبحت مرجريت تشعر في كل يوم بالرغبة العارمة في الذهاب الى أوليفر هادو ، ورغم انها كانت تحاول ان تقنع نفسها بعدم الخضوع لهذه الرغبة ، الا أنها كانت تدرك ان هذه المحاولة مجرد ستار لتخفي به حقيقة هذه الرغبة . انها في الواقع لم تكن تريد ان يحول بينها وبين الذهاب حائل، بل كان ينتابها توتر عصبي شديد حينما تتصور ان حادثا ما قد يقع ويمنعها من الذهاب اليه . انها تشعر دائما بذلك الجوع النفسي العنيف الذي

يدفعها اليه ، ومن ثم أصبحت لا تحس بالحيـاة الا في الساعات التي تقضيها معه . وكانت نشوتها تزداد يوما بعد يوم كلما غابت عن وعيها تحت نيران قبلاته وقوة عناقه ، وأعجب ما في الامر ان هذه النشوة العارمة كانت تمتزج دائما بالنفور والتقزز ، وهكذا كان انجذابها اليه مقرونا بالتقزز منـــه .

ولكنها ما تكاد ترى نظراته اليها ، وتسمع نبرات صوته المترنمة في أذنيها ، وتحس بضغط شفتيه الغليظتين على شفتيها حتى تنسى كل شيء . وكان في أحاديثه معها يرفع امام خيالها جانبا من الستار الذي يختفي وراءه عالم آخر من عوالم ما وراء الطبيعة ، وهكذا يتيح لها ان تلمح ومضات من الاسرار اللانهائية الرهيبة ، وفي كل مرة كانت تدرك لماذا يضحي بعض الناس بحياتهم في السعي لمعرفة بعض هذه الاسرار التي لا يحيط بهـا العقل البشري . اما أوليفر هادو نفسه ، فلم تكن تعرف عنه شيئا ، لم تكن تعرف ما اذا كان يحبها أم يحقد عليها ، فقد بدا لها دائما مختلفا عن بقية البشر ، وقد عرفت ذات يوم ، مصادفة ، ان أمه على قيد الحياة ، ولكنه لم يكن يتحدث عنها ، بل اكتفى بقوله :

ـ سوف أصحبك لزيارتها يوما ما .

ـ متى ؟!

ـ في أقرب فرصة .

وفي خلال هذا كله كانت ـ في الظاهر ـ تمضي في حياتها كالمعتاد ، فتذهب الى معهد الرسم صباحا ، وتتحدث بطريقة عادية ، وكلما ذهبت الى أوليفر زعمت انها كانت تزور صديقة مريضة وحيدة في الحياة ، وقد وجدت انه ليس اسهل من خداع الناس ، لاسيما اذا كان الانسان الخادع موضع ثقتهم ، ومعروفا ـ في نفس الوقت ـ بينهم بالامانة والصدق . ولكنها في بعض الليالي كانت تشعر بتأنيب الضمير على الطريقة التي تخدع بها آرثر

بردون . على انها ادركت في النهاية ان الامر افلت من يدها وان فرصة التراجع عن الطريق التي اندفعت فيه قد ضاعت الى الابد . وقد حاولت كثيرا ان تعرف لماذا تغيرت عواطفها نحوه بهذه السرعة والعنف ! ان اوليفر هادو لم يكن يذكر اسمه امامها الا نادرا ، ومع ذلك فقد عرف ، بطريقة ما، كيف يسمم أفكارها نحوه، وهكذا أصبحت المقارنة بينهما في غير صالح آرثر . لقد بدأت تشعر في الايام الاخيرة انه ثقيل الظل بعض الشيء ، وان نظرته الضيقة الى الحياة تختلف كثيرا عن نظرات اوليفر الشاملة الواسعة . وفي أعماق نفسها اخذت تلوم آرثر لانه لم يحـاول ابدا ان يغوص الى مشاعرها ، ويدرك حقيقة نظرتها الى الحياة . وأحست تدريجيا انها تكرهه بسبب ضخامة ما تدين به اليه في حياتها ، وكلما تذكرت ما أسداه اليها من خدمات ادبية ومادية ، ازداد شعورها بالمذلة ، وبالكراهية ايضا . لقد بدا لها أنه ما كان ينبغي ان يسرف في تطويق عنقها بكل هذه الافضال، ولا شك انه أراد ارغامها بهذا كله على الزواج به . ومع هذا ، فقد استمرت تتبادل معه الحديث والآراء عن نظام بيت الزوجية الذي سينعمان به في هارلي ستريت « شارع كبار الاطباء » . وكانت امارات السعادة تتألق في وجه آرثر كلما تم الاتفاق بينهما على شيء معين ، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن تعرف ماذا يخبىء لها المستقبل ، بل لم يكن يعنيها في شيء ما يخفيه لها بين طياته. ولكن الامر المؤكد الذي كانت تدريه أن زواجها من آرثر غدا في حكم المستحيل .

وكانت ترقب سوزي ، وآرثر في مكر وهما يتبادلان الاحاديث في مودة الاصدقاء المتآلفين ، ورغم انها كانت ترقبهما لتخفي عن اعينهما سرها، الا انها اكتشفت بهذه المراقبة شيئا عجيبا ، اكتشفت ان سوزي غارقة الى أذنيها في حب آرثر . وقد أدهشتها مفاجأة هذا الاكتشاف حتى ظنت ان الامر غير معقول اطلاقا .

وتأكدت لديها هذه الحقيقة حين رأت مصادفة في كراسة رسم سوزي

اربعة عشر رسما تخطيطيا لوجه آرثر ، وكان كل رسم يدل على ان الرسامة تصوره بعواطفها الخاصة . وفاجأت سوزي ذات يوم بقولها :

ــ انك لم ترسمي صورة لآرثر كما وعدت .

فاضطرم وجه سوزي ثم شحب ، وهي تقول :

ــ أوه ، انني لم أجد وقتا لرسم صورة تخطيطية له .

وفي اليوم التالي اختفت الكراسة من درج سوزي ، وهكذا ادركت مرجريت انها حقا غارقة الى أذنيها في حب آرثر .

وفي خلال هذا كله كان أوليفر هادو ينسج شباكه ببراعة وحذر للايقاع بمرجريت تماما . فكان يتناول كل جزء من شخصيتها على حدة ويعمل على تقوية سيطرته عليه ، واستمرت طرقه الشيطانية هذه حتى اصبحت مرجريت تشعر ان حياتها لا يمكن ان تنفصل عن حياته ، واخيرا رأى ان الوقت قد حان لاتخاذ الخطوة الاخيرة .

قال لها ذات يوم بطريقة عرضية أثناء الحديث :

ــ هل تعرفين انني سأغادر باريس يوم الخميس ؟

فوثبت مرجريت واقفة ، ونظرت اليه في دهشة وتساؤل ، وقالت بصوت متهدج :

- وأنا ؟

ــ أنت ستتزوجين الدكتور بردون العظيم !

ــ أنت تعرف انني لا أستطيع الحياة بدونك ، فكيف تبلغ بك القسوة الى هذا الحد ؟

ــ اذن فليس أمامك الا ان ترحلي معي .

وأحست بالدماء تبرد في عروقها ، ثم بانقباض في صدرها ، ولكنها تمالكت نفسها ، وقالت له:

ـ ماذا تعني ؟!

ـ لا داعي للانفعال والغضب . انني أعرض عليك ما تشتهيه نفسك ، اعرض عليك الزواج !

وتهالكت مرجريت في اعياء على اقرب مقعد ، انها لم تكن تفكر في المستقبل ، ولهذا لم تكن تدري ان اليوم سيجيء لتختار بين الفراق عن أوليفر او ربط حياتها بحياته برباط الزواج ، واستبد بها الاحساس العنيف بالنفور والتقزز ، ولكنها ، مع هذا ، ادركت انها رغم هذا الاحساس ، كانت تشعر باحساس آخر متناقض يدفعها اليه ، ويربطها به ، ويجعلها تؤمن بأن الحياة بدونه لا طعم لها ولا مذاق . وفجأة تذكرت كل ما أسداه اليها آرثر من أفضال ، فكرهت نفسها ، ثم حاولت ان تبذل جهدا مستميتا للتحرر من هذا الشيء الغامض الذي يربطها به ، ثم وقفت تنتفض مهتاجة كالطائر الذي يتعلق بآخر أمل في الخلاص من قفصه ، وهتفت قائلة :

ـ دعني انصرف من هنا . انني أتمنى لو لم ارك في حياتي . انني لا أدري ماذا فعلت بي ؟

ـ انصرفي بكل حريتك اذا أردت .

وفتح لها الباب حتى يشعرها انه لا يريد ان يرغمها على شيء ، ووقف في مدخله مسترخيا وعلى شفتيه هذه الابتسامة البغيضة الساخرة ، وكان ثمة شيء رهيب في جرمه الضخم ، فقد كانت طيات الشحم تتدلى من ذقنه وتخفي عنقه ، كما كان وجهه مكتنز الوجنات ، اجرد ، لامعا . ونظرت مرجريت اليه وهي تعبر الباب للخروج ، ثم توقفت فجأة وهي مشتتة الفكر ، ممزقة النفس بين الاشمئزاز والافتتان ، لقد أحست فجأة برغبة عنيفة تدفعها الى ان تكون في أحضانه ، وبين ذراعيه وان تتلاقى شفتاها بشفتيه ، وخيل اليها ان شياطين الجحيم تنتقم من جمالها الباهر فتثير في اعماق نفسها هذا الاشتهاء الشهواني المضطرم لذلك الشيطان الآدمي .

وأحست بالرعدة تسري في بدنها من فرط الشهوة ، بينما كان ينظر اليها بقسوة وهو يقول لها :

ــ اذهبي .

عندئذ اندفعت الى الخارج كالسهم محنية الرأس ، وانطلقت تهيم على وجهها في الطرقات ، الى أن وصلت الى حديقة لوكسمبورج ، ثم دخلت احدى الكنائس لتبتهل وتدعو ، ولكنها عبثا حاولت أن تتحرر من هذه الرغبة المتأججة في صدرها ، رغبة الاسترخاء بين ذراعي اوليفر ، والاحساس بنشوة قبلاته الساخنة على شفتيها .

وكانت وهي في طريق عودتها الى مسكنها تحسد الناس الرائحين والغادين ، بل كانت تحسد البؤساء المشردين الذين يقفون على جانبي الطريق طالبين الاحسان .

وأخذت الدموع تنثال من عينيها ، وهي تقول لنفسها :

ــ لقد تخلت رحمة الله عني ، لقد تخلت رحمة الله عني .

ولم تتمالك نفسها ، فظلت تبكي طول ليلها حتى احمرت عيناها ، وفي اليوم التالي جرت نفسها الى مسكن أوليفر هادو ، وبعد أن دخلت في صمت ، وتهالكت على مقعد قريب قالت :

ــ انني مستعدة للزواج بك في أي وقت تشاء .

ــ لقد اتخذت جميع الاجراءات اللازمة لعقد الزواج .

ــ حدثتني ذات مرة عن والدتك ، فهل يمكن ان تمضي بي اليها الآن ؟

وطافت بوجهه ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ــ نعم . اذا شئت . ولكنني أفضل ان يكون هذا بعد الزواج .

ثم أخبرها بأن الزواج سيتم امام القنصل الانكليزي ، وانه حدد صباح يوم الخميس لاتمامه ، وانهما سيستقلان قطار الحادية عشرة صباحا الذاهب الى انجلترا .

وقالت له ببساطة :

ــ انني سأترك هذه الترتيبات لك ، لاني من فرط شقائي ، لا أستطيع التفكير في شيء .

وعندئذ وضع أوليفر يديه على كتفيها وحملق في عينيها ، ثم قال بلهجة آمرة :

عودي الى مسكنك الآن ، وسوف تنسين دموعك هذه ، انـي آمرك أن تشعري بالسعادة .

وعندئذ أحست ان الصراع المرير بين الخير والشر في نفسها قد انتصر بانتصار الشر . وخامرها احساس عجيب بالبهجة والنشوة ، ولم يعد يهمها في قليل أو كثير رأي اصدقائها فيها ، بل لقد ارسلت ضحكة مريرة ساخرة وهي تذكر كيف خدعتهم بسهولة ، وغررت بهم .

❁

وتصادف أن كان يوم الاربعاء التالي عيد ميلاد آرثر ، فدعاها للعشاء والسهر معه على انفراد قائلا :

ــ لسوف نقضيها سهرة فاخرة ، ولتكن النفقات ما تكون .

وجاء في الساعة السابعة مساء الى مسكنها ليصحبها ، وكانت هي قد فرغت من ارتداء ملابسها بعناية بالغة ، ووقفت تنتظره في وسط غرفتها وهي تتأمل في المرآة جمالها الساطع ، وتنصت الى سوزي ، وهي تقول لها في اطراء :

ــ أعتقد انك ازددت فتنة وجاذبية يا مرجريت في الايام الاخيرة ، ولست أدري ماذا حدث لك حتى جعل أنوثتك تنضج بهذه السرعة المذهلة . انني أرى في عينيك أعماقا جديدة ، أعماقا مليئة بالغموض الذي يزيدك سحرا وفتنة .

وتساءلت مرجريت في نفسها عن شعور سوزي ــ الغارقة في حب آرثر ــ وهي تقارن بين جمالها الباهر الساحر ، وبين شكلها هي المحرومة من هذا الجمال . ألا يستبد بها الحسد ؟ ألا تشعر بالحسرة والانكسار ؟ وأقبل آرثر ، ولم تتحرك مرجريت من مكانها ، وتوقف هو بالقرب من الباب ، وراح يحملق فيها مأخوذا مفتونا . وتلاقت نظراتهما ، وأحس هو بقلبه يخفق في عنف ورهبة . ان حظه السعيد أكبر مما يستطيع أن يحتمله هذا القلب . وكلما فكر في أن هذه الجوهرة النادرة من الجمال المجسم ستكون له ، أحس بالرغبة في أن يركع أمامها ويتعبدها وكأنها احدى آلهات بلاد اليونان القديمة . وكان ايضا قد لاحظ التغيير الذي طرأ عليها ، انه تغيير يثير في نفسه الاضطراب والافتتان معا . لقد بدا له ان هذه الفتاة الحلوة تحولت اخيرا الى انثى ناضجة ، ورقت على شفتيها ابتسامة مشرقة ، ثم جعلت تسأله قائلة :

ــ هل انت راض عني ؟

وتقدم آرثر منها ، فوضعت ذراعيها على كتفيه ، ثم قال وهو يشمها :

ــ لقد تعطرت اليوم !

وكانت دهشة آرثر في محلها لانها لم تتعطر له من قبل مرة واحدة وكان عطرها في هذه المرة فاتنا كأنه ينثال من بعيد ، حاملا اليه ذكريات الطفولة التي أمضاها في الشرق ، على ضفاف النيل ! انه عطر غريب ، ولكنه أضفى على مرجريت مزيدا من الفتنة والسحر لقد كان يرى في جانب من جوانب جمالها المذهل بعض الجمود والبرود ، كجمال التماثيل ، ولكن هذا العطر الغريب اذاب هذا الجمود ، وجعلها تنبض بالحيوية والجاذبية ونداء الجنس واندلعت نيران عاطفته نحوها حتى بلغت حد الالم ، وكان مدهوشا وهو يرى عينيها تعبران عن اشياء غامضة مثيرة .

ثم قالت له :

ـ لماذا لا تقبلني ؟!

ولم تكن في وقفتها ترى سوزي ، ولكنها تخيلت نظرة الالم الممض والحسرة المرة وهي تتألق في عينيها . وجذبت هي آرثر اليها ، وطوقتـه بذراعيها ، وضمته بقوة الى صدرها ، وطبعت على شفتيه قبلة طويلة جعلت رأس آرثر يدور في نشوة ودماءه تلتهب . انه لم يشعر في حياته ابدا ان لها قبلة بمثل هذه الحرارة والعنف ، بل لقد أحس ان نيران شفتيها قـد صهرت شفتيه ، فالتصقت الشفاه ولم يعد يستطيع ان ينتزعهما . ونسي في تلك اللحظات كل شيء ، وتخلت عنه قواه وسيطرته المعتادة على نفسه، وأحس في تلك اللحظة ، من فرط النشوة ، انه لو مات عندئذ ، لكـان أسعد الناس .

لقد بلغ من تركيز احساسه بالنشوة انه لم يتمالك نفسه من ارسال صيحة توجع خفيفة ، وأخيرا ارجعه صوت سوزي الى عالم الواقع ، وهي تقول لـه :

ـ يحسن بكما ان تذهبا للسهرة بدلا من هذا التصرف الصبياني !

وحاولت ان تجعل كلماتها خفيفة مرحة ، ولكن صوتها كان ينم على الالم المر . وتراجعت مرجريت عن أحضان آرثر وهي تضحك بخفة بعد ان ألقت نظرة سريعة كلها استخفاف على صديقتها سوزي وفزعت هذه حين رأت في هذه النظرة ما ينم على الكراهية الخبيثة ، وخيل اليها ان مرجريت قد وقفت بغريزتها على سرها .. سر حبها الخفي الصامت لآرثر بردون .

وكان آرثر واقفا في شبه ذهول ، يرتعد من فرط الانفعال العاطفي ، وأخيرا قالت مرجريت باسمة :

ـ ان سوزي تريد منا ان نسرع الى سهرتنا .

ولم يقل آرثر شيئا وانما بدا شاحب الوجه كرجل افاق من غيبوبة طويلة ، ثم تقدم مسلوب الارادة مع مرجريت ، وغادرا الغرفة .

ورغم أن الباب اغلق وراءهما ، فقد استطاعت مرجيت أن تسمع نحيب سوزي وانخراطها في بكاء خافت .

وعندئذ أحست في اعماق نفسها بنشوة شيطانية .

*

كان المشرب الذي قضيا فيه السهرة من أرقى مشارب العاصمة ، وكان يجتمع فيه عادة اجمل سيدات باريس وأرفعهن مكانة في المجتمع ، ولكن مرجيت كانت بينهن كالماسة النادرة المتألقة بجمالها الساطع ، وحيويتها الدافقة وضحكاتها الرنانة التي بدا للجميع انها تنطلق من قلب مفعم بالسعادة .

وقال آرثر وهو يرى الحياة اجمل وأروع ما تكون :

ـ هلم نشرب نخب سعادتنا الدائمة .

وتلامسا بالكأسين ، وعاد يقول لها وهو لا يكاد يرفع عينيه عن وجهها :

ـ انك الليلة قد بلغت ذروة الجمال والبهاء ، واني لأخشى ان يستكثر القدر علي كل هذه السعادة .

ـ أوه ، ما هذه الاوهام يا حبيبي ؟

ـ اني على استعداد لان أضحي بأي شيء عزيز علي حتى أرضي القدر ، فما أسعدني الآن ! وما أروع سير الامور معي !

وأرسلت ضحكة ناعمة خافتة ، ووضعت يدها على المائدة ، وكانت يدا يعجز أنبغ مثال عن صنع نموذج في مثل رقتها وشفافيتها وجمال سمتها. وكانت اصبعها تتزين بخاتم من الزمرد كان آرثر قد قدمه اليها كهدية لخطبتها .

وقال بعد ان فرغا من تناول العشاء :

ـ لا . اني أحب البقاء هنا ، وأعتقد انني لن أطيل السهر الليلة لان

لدي مهمة سأقوم بها غدا .

ــ ماذا تنوين ان تفعلي غدا ؟

فضحكت وقالت :

ــ لا شيء ذا أهمية خاصة .

وغادرا المشرب ، وسارا معا في اتجاه المادلين ، وكانت الليلة صافية الاديم رغم برودة الجو بعض الشيء ، وأحست مرجريت وهي ترى الشارع العريض المزدحم بالناس كأنها تقوم بدورها في مسرحية عجيبة غريبة . وأخيرا استقلا مركبة مغلقة ، مضت بهما الى مونبارناس .

وكانت مرجريت في الطريق تضع رأسها على صدر آرثر ، وتحس بضغط ذراعه على خصرها حينا ، وبحرارة قبلاته على شفتيها حينا آخر .

وقال لها هامسا :

ــ لقد أسعدتني جدا الليلة يا مرجريت ، ولا أظن انني سأعيش يوما أسعد من هذا اليوم طول حياتي .

ــ هل تحبني كثيرا يا آرثر ؟

ولكنه لم يجبها بل دفن وجهه في راحتيها وأشبعهما لثما وتقبيلا .

ولما صعد معها الى باب مسكنها قدمت يدها اليه ، وقالت :

ــ وداعا .

ــ تصوري انني سأحتمل بمشقة ساعات الليل التي ستفصلني عنك ! متى أراك غدا ؟

ــ لا تأت في الصباح على كل حال ، لاني سأكون مشغولة في مهمة خاصة . تعال في الثانية عشرة ظهرا .

لقد كانت تعرف ان القطار الذاهب الى لندن سيتحرك في هذا الموعد تماما .

ولوحت بيدها في خفة لآرثر ، ثم أغلقت الباب .

الفصل التاسع

القلب المعذب

أخذت سوزي تحملق في ذهول في الرسالة الموجزة التي ارسلتها اليها مرجريت من محطة جاردي نور . وكانت الرسالة كما يلي :

« عندما تصلك هذه الرسالة اكون انا في الطريق الى لندن ، لقد تزوجت اوليفر هادو ، انني أحبه كما لم أحب آرثر بردون ابدا . وقد تصرفت هكذا لاني تماديت في علاقتي بأوليفر ، بحيث أصبح من العسير علي أن أشرح لآرثر . فأرجوك ان تبلغيه .

مرجريت »

وبعد ان قرأت سوزي الرسالة للمرة الثالثة ، أحست بمزيج من الدهشة والارتباك والاشمئزاز ، فلم تدر ماذا تفعل ، وماذا تقول . وسمعت طرقا خفيفا على الباب ، فأدركت ان الطارق لا بد أن يكون آرثر ، وقررت بسرعة أن من المستحيل ابلاغه رسالة مرجريت في هذه اللحظة ، لقد رأت أولا ان تتأكد من حقيقة الامر ، ثم تتصرف بعد ذلك حسب ما يقتضيه الموقف .

ولما فتحت الباب ، قالت لآرثر :

ـ أوه انني آسفة لان مرجريت ليست هنا ، لقد ذهبت لزيارة صديقة مريضة ارسلت اليها فجأة .

ـ أوه ما أثقل هذا ، أعتقد انها المسز بلومفيلد كالمعتاد !

ــ أتعرف ان مسز بلومفيلد مريضة ؟

ــ لقد كانت مرجريت تقضي فترات ما بعد الظهر معها اياما كثيرة خلال الاسبوعين الاخيرين .

ولم تجب سوزي . فقد كانت هذه أول مرة تسمع فيها عن مرض المسز بلومفيلد ، وعن تردد مرجريت عليها كثيرا في فترات المساء . ولم تحاول سوزي أن تفكر في هذا الموضوع طويلا ، لان هدفها الاساسي في تلك اللحظة كان التخلص من آرثر بسرعة . فقالت له :

ــ ألا يمكن ان تعود في الساعة الخامسة ؟

ــ حسنا ، ولكن ، ألديك مانع في أن تتناول الغداء معا ؟

ــ انني آسفة اليوم ، لاني في انتظار صديقة لي .

ــ أوه . حسنا ، لسوف أعود في الخامسة .

وأومأ برأسه ، ثم انصرف . وعادت سوزي تقرأ الرسالة مرة اخرى وهي لا تكاد تصدق عينيها . وأخيرا دخلت غرفة مرجريت ، فوجدت كل شيء في موضعه ، ولكنها لاحظت ان عددا من الرسائل كانت محترقة في المدفأة كما ان جواهر مرجريت كلها لم تكن في ادراجها المعتادة . وكانت تعرف ان لمرجريت عددا كبيرا من الفساتين الجديدة عند احدى الخياطات المشهورات التي كانت تعدها لليلة الزفاف . ولما ذهبت سوزي الى الخياطة، علمت أن مرجريت استلمتها في الصباح الباكر ودفعت اجر الخياطة كاملا ولما عادت سوزي الى مسكنها ، سألت حارسته العجوز عن مرجريت فقالت لها هذه :

ــ رأيتها في الصباح الباكر تستقل عربة أجرة وتطلب من السائق أن يمضي بها الى القنصلية الانجليزية . وفي القنصلية الانجليزية أيقنت سوزي أن الزواج تم حقا بين مرجريت وأوليفر هادو .

ولكن ماذا عن المسز بلومفيلد ! هل كانت مرجيت تذهب لزيارتها حقـــا ؟

ولكن السيدة العجوز المريضة قالت انها لم تر مرجيت منذ اكثـر من شهر .

ولم يبق أمامها الا ان تصارح آرثر بالحقيقة ، وخطر لها أن تلجأ الى الدكتور بورهيت ليعينها على محاولة التخفيف عن آرثر عندما يتلقى هذه الصدمة . ولكنها أدركت ان الدكتور بورهيت لن يستطيع ان يفعل شيئا في موقف كهذا ، وان عليها هي أن تتحمل عبء القيام بهذه المهمة الرهيبة .
ـ مستر بردون ، أريد ان اقول لك شيئا ، وأعتقد انك ستتألم كثيرا .

وهنا لاحظ خشونة نبرات صوتها ، فوثب واقفا وقد ومضت في ذهنه ألف فكرة عن وقوع شيء خطير لمرجيت . هل هي مريضة ؟ هل أصيبت في حادث ؟ هل ... ان الرعب المفاجيء شل لسانه عن الحديث ، وأوقف عقله عن التفكير ، فراح ينظر الى سوزي فاغرا فاه ، جاحظ العينين برهة ، وهو يمد يده كأعمى يتحسس الطريق . وبذلت سوزي جهدا بالغا لتستمر في الحديث ، ولكنها لم تستطع ايضا ، فقد اختنـــق صوتها ، وانخرطت في البكاء . وأخذ آرثر يرتعد كمن أصيب بحمى شديدة ، ولـم يسعها هي ألا ان تقدم اليه رسالة مرجيت في صمت .

ولما قرأها ، قال بصوت أجوف :
ما معنى هذا ؟! .

وفيما كان ينظر اليها في ذهول ، راحت تقص عليه ما قامت به من تحريات اكدت لها صحة ما ورد في الرسالة ، ثم قالت :

ـ عندما كنت تظن انها تقضي فترات المساء مع المسز بلومفيلد المريضة، كانت في الحقيقة تقضيها مع ذلك الرجل . والواقع انها اتخذت جميـــع

ترتيبات زواجها به في حذر وعناية شديدين .

وتهالك آرثر جالسا ودفن وجهه بين يديه، واستدار بظهره الى سوزي، وظل الاثنان جالسين في صمت تام . ولما عجزت الفتاة عن احتمال الموقف ، راحت تبكي في خفوت، لانها عرفت أن الشاب الذي تحبه بكل ذرة من كيانها يتعذب في تلك اللحظة عذابا أهون منه لحظات الموت الاخيرة . ومع ذلك فهي لا تستطيع التخفيف عنه او مواساته .

واندلع الغضب الشديد في قلبها على مرجريت ، وأحست بالكراهية الشديدة لها ، فهتفت اخيرا :

ـ أوه ! ان هذا لا يطاق . انه لامر شائن فظيـــع . لقد كذبت عليك وتعمدت خداعك . فلا بد انها حقيرة النفس بلا قلب . لا بد انها سوقية فاسدة الاخلاق بطبيعتها .

فاستدار آرثر اليها وقال بصوت حاسم :

ـ انني أمنعك من الحديث عنها بسوء .

وندت عن سوزي شهقة خفيفة ، وهي تراه لاول مرة في هذه الحالة من الغضب ، ولكنها أسرعت تقول بعنف :

ـ هل يمكن ان تظل على حبها بعد ان ثبت لك بالدليل القاطع خداعها وغدرها . لا شك ان هذا الرجل كان يبادلها الحب منذ شهر تقريبا ، بينما هي تتظاهر امامنا بكراهيته والنفور منه . وهذا يعني انها كانت تعيش في عالم من الاكاذيب والخداع ، وانها كانت تستغل حبك وايمانك بها ، رغم انها تدين لك بكل شيء في حياتها الحاضرة . لقد ظلت تعيش منذ وفاة أبيها عالة عليك ، ولولا كرمك لما استطاعت ان تكون هنا في باريس لتحقيق نزواتها . بل ان الملابس التي تسترها من بعض مالك وفضلك عليها .

وهتف هو في يأس :

ـ انني لا ألومها لانها لم تستطع ان تحبني .

ـ ولكنك تعرف ، كما أعرف أنا ، انها تظاهرت بحبك ، وهذا هو الخداع والغدر . انني لا أستطيع ان ألتمس لها أي عذر .

ونظر الى سوزي بعينين مثقلتين بالحزن والارهاق ، ثم قال :

ـ كيف يمكن ان تبلغ بك القسوة هذا الحد ؟ ارجوك بحق السماء ألا تزيدي آلامي .

وكان صوته مفعما بعذاب نفسي شديد ، وبدا وجهه شاحبا مختلج الاعصاب حتى ليخيل لمن يراه انه على وشك الانهيار . وقد انهار فعلا عندما وضع وجهه بين يديه وراح يبكي بعنف .

وقالت سوزي معتذرة :

ـ أوه ، انني آسفة . انني لم أقصد ان أتلفظ بهذه العبارات الجارحة أو أن أبدو قاسية القلب . كان ينبغي ان أذكر الى اي حد تحبها ؟

ولما خفت نوبة البكاء ، ساد الصمت فترة وجيزة ، ثم رفع وجهه ، فاذا بالخطوط العميقة تبدو تحت عينيه وحول فمه ، واذا هو يلوح لسوزي كأنه كبر في تلك اللحظة عشرة أعوام .

وغمغم قائلا ، كأنما يحدث نفسه :

ـ ان ما حدث لا يمكن أن يكون حقيقة واقعة . انني لا أكاد أصدق . لا بد أنها دعابة ثقيلة من أحد .

وسمع الاثنان نقرا على الباب ، فهتف آرثر قائلا وقد ومض الامل في عينيه :

ـ لعلها مرجريت قد عادت !

وفتح الباب بسرعة ، ولكن ومضة الامل تلاشت من عينيه حين رأى أن القادم ليس احدا غير الدكتور بورهيت الذي قال :

ـ كيف حالكم ؟ ماذا حدث ؟

ثم تلفت حوله وعندما لمح امارات اليأس الواضحة على وجه آرثر قال :

اين مرجريت ! ؟ لقد ظننت انكم مشغولون بحفلة جميلة !

ـ حفلة ؟

ـ نعم ، لقد تلقيت في هذا الصباح برقية من اوليفر هادو يطلب مني فيها ان أحضر هنا في الساعة الخامسة للفرجة على منظر لطيف مثير .

وقال آرثر بهدوء :

ـ لقد تزوجت مرجريت باوليفر هادو في هذا الصباح . لقد فهمت انهما سافرا الى انجلترا .

وأسرعت سوزي وشرحت الامر كله للدكتور بورهيت الذي قال أخيرا .

ـ ولكن ما معنى هذا كله ! ؟

فهز آرثر كتفيه ، وقال باستسلام :

ـ التفسير الوحيد أنها أحبت أوليفر اكثر مما أحبتني ، ومن الطبيعي أن تمضي من حياتي على هذا النحو حتى تتجنب حرج الشرح والتفسير .

ـ ومتى رأيتها أخر مرة ؟

ـ لقد أمضينا سهرة الامس معا .

ـ ألم يبد عليها أنها تنوي اتخاذ مثل هذه الخطوة ؟

ـ لا .

ـ الم تختلفا على شيء ؟

ـ بل كنا في أحسن حالاتنا العاطفية. بل انني لم أرها في حياتي ضاحكة سعيدة مرحة كما رأيتها أمس . والعجيب أنها كانت تتحدث بلا انقطاع عن

بيت الزوجية في شارع هارلى ، وعن الاماكن التي سنزورها معا بعد الزواج .

واختلج وجهه مرة أخرى بالالم العنيف ، فوضعه بين يديه ، ثم قال ، وهو يتذكر قبلاتها الملتهبة له في الليلة السابقة :

ــ انني واثق أنها أحبتني !

وقالت سوزي في دهشة :

ــ لقد كانت مرجريت تكره أوليفر هادو وتشمئز منه الى اقصى حد . كانت تنفر منه كما ينفر بعض الناس من حيوانات أو حشرات معينة . فماذا يمكن أن يكون قد حدث حتى حول هذا النفور كله الى حب عنيف جعلها تخدع وتكذب وتغدر للتستر عليه ؟

وهتف آرثر وهو يتخيل مرجريت بين ذراعي وحش آدمي مثل أوليفر :

ــ ربما لم تتزوج حقا ، ربما خدعت به ، ولعلها ستعود قريبا .

فسألته سوزي قائلة :

ــ هل ستقبلها وتغفر لها اذا عادت ؟

ــ أيخطر ببالك أن أية قوة في الدنيا يمكنها ان تقلل حبي لمرجريت ؟ لا بد أن هناك أسبابا لا نعرفها دفعتها الى مثل هذا السلوك .

وهنا نهض الدكتور بورهيت ، وقال :

ــ لو أن أمرأة أساءت الي بهذا الشكل لما وجدت انتقاما أفظع وارهب من ان ازوجها برجل مثل أوليفر هادو .

ــ أوه ، يا للمسكينة ! انني لا أظن المستقبل سيحمل لها أي لون من السعادة وان هذا ما يزعجني ويفزعني .

وقالت سوزي ، وهي تنظر في أسى الى ارثر :

ــ أتتذكر اليوم الذي ضربت فيه أوليفر هادو في هذا المرسم ؟ لقد

لمحت على شفتيه ومضة ابتسامة رهيبة ، وفي عينيه بريق نظرات خبيثة ، وقد حذرتك منه في اليوم التالي ، ولكنك ضحكت ساخرا . وأعتقد أنه في تلك اللحظة قرر الانتقام منك بهذه الطريقة ، ولا شك أنه أرسل البرقية للدكتور بورهيت ليشهد عذابك وليرى أثر انتقامه منك .

ـ ولكن كيف استطاع ان يعرف مقدما أن في مقدوره توجيه هذه الضربة الي بنجاح ؟

فقال الدكتور بورهيت :

ـ لا شك أنه نجح بوسائل خفية أبسطها تسميم أفكارها وتغيير شخصيتها وسلب ارادتها ، وهناك رجال كثيرون استطاعوا أن يبلغوا بنجاح هذه المرحلة من القدرة على السيطرة على الغير عقليا ونفسيا . ولا شك أن الفكرة كلها شيطانية ، لقد عرف أن مرجريت هي سعادتك في الحياة ، فقرر أن ينتزع منك هذه السعادة ، ويملأ حياتك بشقاء أسوأ من الموت .

وصاح آرثر :

ـ نعم . نعم . هذا صحيح ، ولا شك أن مرجريت التي غدرت بي وخدعتني ليست هي مرجريت التي عرفتها منذ طفولتها وأحببتها . لقد غير ذلك الشيطان شخصيتها وسلب ارادتها ، وبدل تفكيرها .

وقالت سوزي بحرارة :

ـ وهذا هو رأيي أيضا . ان مرجريت التي خدعتنا جميعا ، ليست هي التي عرفتها منذ طفولتها أنا أيضا . والان ، هل يمكن أن يكون هادو قد سلب ارادتها بنوع من السحر ؟ ما رأيك يا دكتور بورهيت ؟

وهتف الدكتور بورهيت في حيرة :

ـ انني لا أستطيع ان أجزم بشيء . ان ما قرأته في كتب السحر وما وراء الطبيعة يؤكد لي وجود هذه القوة التي يمارسها الساحر لتنفيذ أهدافه ، ولكن عقلي لا يزال يكذب هذا كله . وأيا كان الامر فان القانون لن يساعدنا على اتخاذ أية خطوة في هذا الشأن ، لانها ذهبت معه بمحض اختيارها .

ونهض آرثر قائلا :

ـ ليس في وسعنا الان الا أن نصبر ونتحمل .

وسألته سوزي قائلة :

ـ الى أين ستمضي ؟

سأرحل عن باريس التي يذكرني كل شيء فيها بهذه المأساة .يجب أن أعود الى عملي في لندن .

فقالت له وهي تصافح يده الممتدة اليها :

ـ كل ما أرجوه أن يهبك الله الصبر والنسيان .

ـ انني لا أريد أن أنسى . واذا حدث ان رأيت مرجريت يوما واستطعت ان تتحدثي اليها ، فأرجو أن تخبريها انني لا احمل لها أية ضغينة ، وانني على استعداد للقيام بأية خدمة لها مهما تكن الظروف .

ـ سأفعل ما تريد ان اتيحت لي الفرصة .

ـ والان وداعا .

ـ هل يعني هذا اننا لن نراك بعد اليوم ؟ انني اكره ان يكون هذا اخر لقاء بيننا !

ـ وأنا ايضا آكره هذا ، فأنت انسانة مفعمة القلب بالشفقة والحنان ، ولن أنسى ابدا أنك أعز صديقات مرجريت . ولهذا ارجو ان تتصلي بي كلما ذهبت الى لندن .

وبعد انصرافه ، قال الدكتور بورهيت وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا :

ـ ان الشيء الذي يحيرني هو لماذا لجأ هادو الى الزواج بها ؟ لماذا لم يكتف بالهرب معها ؟

ـ لانه كان يعرف أن ارثر على استعداد للصفح عنها مهما فعلت ، ولهذا رأى أن الزواج هو الرباط الذي يشدها اليه بصفة دائمة .

الفصل العاشر

المفاجأة الرهيبة

وفي اليوم التالي عاد آرثر الى لندن .

ورأت سوزي أن من المستحيل عليها البقاء في المسكن بمفردها ، فقبلت دعوة صديقة لها لقضاء فصل الشتاء في ايطاليا . وقبع الرجل الطيب الدكتور بورهيت في بيته بباريس بين كتبه وعمله .

ولما وصلت سوزي الى روما ، أرسلت خطابا موجزا الى آرثر ، وقد قال في الرد عليها انه يقوم بعمله كجراح ، ويلقي محاضرات في الجراحة بمستشفى سانت ليوك ، وعين أستاذا زائرا في مستشفى أخر ، وأخبرها أن عيادته الخاصة تزدهر يوما بعد يوم . ولم يرد في خطابه أي ذكر لمرجريت .

وسمعت سوزي وهي في روما أحاديث كثيرة عن أوليفر هــادو وزوجته . وتبين لها من هذه الاحـاديث انهما كانا يعيشان حياة مترفـة وينزلان بأفخر الفنادق ، ويرتكبان مختلف التصرفات الشاذة ، ويلفتان الانظار بمظهرهما : مظهر أوليفر المسرف في أناقة ملابسه وغرابة منظره ، ومظهر مرجريت بجمالها الساطع وشبابها الناضر مما يتناقض تماما مع بدانة زوجها وغلظة جسمه . وكذلك تبين لها من أقوال نساء ورجال المجتمع في روما أن أوليفر كان يبدو في مظهر الرجل الواسع الثراء ، ولكنه اختفى تاركا وراءه ديونا كثيرة عليه للغير ، ثم قيل انه سددها فيما بعد .

ولما علمت أنهما في مونت كارلو . سافرت اليهما ، وظلت تبحث عنهما

حتى رأتهما على مائدة الروليت ، وكانت مرجريت جالسة تلعب بمبالـــغ ضخمة وهي أسطع ما تكون جمالا وأبهى ما تكون منظرا ، وكان هادو واقفا بجانبها ، واضعا يده على كتفها ، مرتديا عباءة صارخة الالوان مـــن القماش الفاخر الموشى بالذهب .

ولم تستطع سوزي ، لفرط الازدحام ان تقترب من مرجريت ، ولكنها سمعت عنها وعن زوجها اقوالا كثيرة عجيبة ممن حولها ، قال بعضهم أن أوليفر هادو يتشغل بالاعمال السحرية ، وأنه يقيم في حديقة « الفيلا » التي يستأجرها لاحياء حفلات صاخبة شائنه يحدد فيها تلك الطقوس الشيطانية الفاجرة التي كانت شائعة في عصر ما قبل النهضة الاوروبية ، وقال غيرهم ، انه يحاول ان يصنع الذهب من الحديد ، وانه يستغل علومه السحرية في ألعاب المقامرة ، فيربح مع زوجته مبالغ طائلة ، وقال غير هؤلاء واولئك انه يتخذ من زوجته وسيطة لاعماله السحرية ، وهي لهذا السبب تعيش معه محتفظة بعذريتها ، لان « البكارة » ضرورية جدا لنجاح الاعمال السحرية كما يزعمون . وسمعت سوزي بعد هذا كله ما جعل فرائصها ترتعد رغما عنها . سمعت أن أوليفر هادو يقوم بأبحاث وتجارب سرية لصنع المـــادة العضوية من مواد لا عضوية ، أي لخلق نوع من الحياة في المادة الميتة ، وأنه نجح في خلق أحياء صغيرة رهيبة تعيش على دماء البشر .

ولشد ماكانت دهشة سوزي أن ترى مرجريت.رغم كل هذه الاقوال، جالسة تضحك عاليا ، وهي تجمع الارباح الطائلة من أمامها .

ولم تستطع سوزي ، رغم الاسبوع الذي أمضته في مونت كارلو ، ان تلتقي على انفراد بمرجريت ، ذلك أن الاخيرة وزوجها كانا دائما محوطين بعدد كبير من المعجبين بجمال مرجريت ، ومن المفتونات بأحاديث هادو ، وكان هؤلاء وهؤلاء جميعا ، كما عرفت سوزي ، من المقامرين المحترفين ، ومن ذوي الاخلاق السيئة ، وأصحاب النزوات الشاذة التي يخلقها فـــي النفس عادة المال الوفير .

وفي نهاية الاسبوع ، سمعت سوزي أن أوليفر أعطى احد خدم الفندق اثناءحفلة عشاء أقامها لاصحابه ورقةمالية من فئة الجنيهات الخمسة تبين انها مزيفة ، ولما حاول الخادم ان يعيدها أليه ، أنكرها أوليفر ، وحدثت مشادة عنيفة ، وهدد مدير الفندق باستدعاء رجال البوليس ، ولكن اصحاب أوليفر المدعوين تآزروا على تسوية الموضوع ، ثم غادروا الحفلة في استنكار واشمئزاز .

واختفى اوليفر ومرجريت من مونت كارلو في اليوم التالي .

ويبدو ان ما حدث في روما ، قد تكرر في مدينة المقامرة .

*

وعادت سوزي الى لندن في نهاية الربيع ، ولم تنس اثناء عودتها ان تمر بباريس لتشتري مجموعة من اجمل الملابس واحدثها طرازا . ذلك ان ضروب اهتمامها في الحياة تركزت اخيرا في ارتداء الملابس التي تجعل غيرها من السيدات الانيقات ينفعلن بالغيرة والاندهاش !

وما أن استقرت في مسكنها الخاص بلندن حتى ارسلت الى آرثر بردون تخطره بوصولها رغم ادراكها التام انه لا يحمل لها غير عاطفة سطحية بحكم صداقتها السابقة لمرجريت .

ولكن آرثر اسرع بالرد عليها ، ودعاها الى تناول الغداء في احد المطاعم المعروفة . وشعرت بالاستياء لهذه الدعوة ، فقد كانت تريد ان تجلس معه على انفراد في مكان هادىء تتبادل معه الحديث عن مرجريت ، وعما سمعته عنها وعن اوليفر اثناء اقامتها في ايطاليا .

ولما التقت به في الموعد المحدد ، نظرت اليه في عطف واشفاق واندهاش ، ولولا ان ملامحه محفورة في ذهنها ، بل في قلبها ، لما تعرفت عليه ، لأن التغيير الذي طرأ عليه في هذه الشهور الستة الاخيرة كان رهيبا هائلا . لقد رأت الشيب يملأ شعر رأسه ، والوجه غائر الوجنات ، والتجاعيد تتكاثر تحت العينين وحول الشفتين ، وطابع العذاب والالم أصبح ظاهرا بوضوح على وجهه .

وأسوأ من هذا كله زوال ذلك الشعور الجميل الذي كانت سوزي تحس به كلما جلست معه . فقد كانت تحس انها جالسة مع رجل هادىء متزن رصين يمكن الاعتماد عليه في الشدة . أما الآن ، فقد زال هـــذا الاحساس ، وأصبحت تشعر بالقلق وهي جالسة معه في المطعم المزدحـم بالآكلين السعداء .

ولكنه ، رغم هذا كله ، كان اكثر تلطفا معها عن ذي قبل ، بل لقد أعرب عن ابتهاجه برؤيتها ولقائها ، وراح يسألها عن رحلاتها وما شاهدته خلالها ، ولكن سوزي استطاعت ان تستدرجه للحديث عن نفسه ، فقال لها ان ثروته من عمله تزداد يوما بعد يوم وانه يعمل من السابعة صباحا حتى منتصف الليل بلا انقطاع . وهنا سألته سوزي قائلة :

ــ ولماذا تجهد نفسك بهذا الشكل ؟

ــ لاني لا أستطيع النوم الا أربع او خمس ساعات في الليل .

وتوقف عن الحديث فجأة بعد أن علم انه كشف ، رغما عنه ، عما يعانيه من آلام وعذاب . وادركت سوزي ان المسكين يغرق نفسه في عمل متواصل طيلة اليوم ، حتى اذا اوى الى فراشه ، بدأ التفكير في مرجريت يحز في نفسه ، ويعذب روحه ، ويطرد النوم من عينيه ، وبعد ان يغفو قليلا بين حين وآخر ، يقفز من الفراش بمجرد ان ينبلج الفجر هاربا من الليل ومن عذاب التفكير في سعادته الضائعة .

وبعد ان فرغا من تناول الغداء ، استجمعت سوزي شجاعتها وقالت له :

ــ الا يمكن ان تزورني في مسكني لمدة نصف ساعـة حيث نستطيـع ان نتحدث على انفراد ؟

فندت عنه حركة تنم عن التراجع والرفض ، ولكنها أسرعت تقول :

ــ ان هناك موضوعات كثيرة يجب ان نتبـادل فيها الحديث في مكان هادىء .

فقال في صوت هامس كأنما يحدث نفسه :

ــ ان الطريقة الوحيدة التي يحافظ الانسان بها على قوته ، هي عــدم الاستسلام للضعف .

ــ اذن فلن تأتي !

ــ لا

وصمتت سوزي برهة قبل أن تقول :

ــ لم تتح لي الظروف لان ابلغ مرجريت رسالتك لها .

وومضت عيناه ببريق عجيب كأنما يوشك ان يعجز عن احتمال آلامه، بينما استطردت سوزي قائلة :

ــ لقد رأيتها في مونت كارلو ، وكنت اظن انك تريد ان تسمع شيئا عنها.

ــ وما فائدة هــذا ؟

وهزت سوزي كتفيها وقالت :

ــ هل ننصرف الآن ؟!

ــ نعم . وأرجو ألا تكوني غاضبة مني ، فاني لم أقصد ان أكون جافا معك . وأشكر لك شعورك الطيب نحوي .

وفيما هما يغادران المطعم الفاخر ، اذا بصديق لهما يقبل عليهما ، انه الدكتور اربثنوت ، اخصائي العيون ، وكانت سوزي قد التقت به في مونت كارلو ، على شاطىء الريفييرا ، وكان رجلا كهلا يحب اللهو والخمر والميسر والنساء بوجه عام ، الجميلات منهن وغير الجميلات على السواء ، وكان زميلا لآرثر في الكلية .

وهتف الدكتور اربثنوت قائلا في ابتهاج :

ــ يا للمصادفة السعيدة ، انكما الصديقان الوحيدان اللذان كنت أرجو أن ألتقي بهما . انني أقيم حفلة خاصة الليلة في فندق سافوري ، وقــد اعتذر اثنان من المدعوين عن الحضور في آخر لحظة ، وأرجو ألا تخذلاني،

فان المائدة معدة لثمانية مدعوين ، ولهذا يجب ان تأتيا لتحلا محل المعتذرين.

وحاول آرثر ان يعتذر ، ولكن الدكتور اربثنوت رفض كل اعتذار بطريقته المرحة ، وقال :

ــ ان من بين المدعوين اثنين غريبي الاطوار أحب ان أعرفكما بهما ، وبينهم ايضا اجمل ممثلة في لندن ، وأجمل راقصة باليه وفتاة أمريكية من صاحبات الملايين .

وتم الاتفاق بينهم على اللقاء في بهو فندق سافوري في تمام الساعة السابعة مساء .

وحرصت سوزي على ارتداء فستان من أحدث طراز باريسي ، كلفها مبلغا ضخما من المال ، ولشد ما كانت بهجتها وهي تدخل بهو فندق سافوري الفاخر حين رأت وجوه بعض النساء تشحب من فرط الحسد وهن ينظرن الى ثوبها الانيق الفاخر .

وكان آرثر قد مر على مسكنها بمركبة مأجورة ليصحبها الى بهو الفندق، وهناك وجدا الدكتور اربثنوت في استقبالهما ضاحكا مازحا كعادته ، وما لبث ان سار بينهما يتأبط ذراعيهما حتى أوصلهما الى الغرفة التي جلس فيها مدعووه .

وهنا وجد آرثر نفسه وجها لوجه امام مرجريت وزوجها أوليفر هادو!

وقال الدكتور اربثنوت وهو يقدم مدعويه بعضهم لبعض :

ــ الدكتور آرثر بردون ــ المسز هادو . ان آرثر زميلي في مستشفى سانت ليوك ، وأعتقد انه سيريحكم من الزوائد في أقرب فرصة .

وفيما كان الدكتور المرح يثرثر بالاحاديث ، وقف آرثر ينظر الى مرجريت بوجه يعلوه الشحوب ، وكانت هي أيضا ممتقعة الوجه وهي تنظر اليه ، أما أوليفر هادو فقد ارتسمت على وجهه الضخم ابتسامة عريضة كأنما يستمتع بهذا الموقف المثير . وتقدم من آرثر قائلا في صوت عادي ينم عن الابتهاج :

ـ ان الدكتور بردون صديق قديم لنا ، وفي الواقع انه هو الذي عرفني بزوجتي ، وكثيرا ما كنت أتناقش مع المس بويد في الشؤون الفنية وفي الموضوعات التي تتناول الروح والخلود وما الى ذلك .

وصاح الدكتور اربثنوت مصطنعا خيبة الأمل :

ـ ما أسخف هذا ! لقد كنت اريد مفاجأة المس سوزي بويد بواحد من السحرة العصريين ، فاذا بها تعـرف كل شيء عنه ، والآن ، كيـف سنجلس ؟

فنظر أوليفر الى آرثر وغمز بعينه :

ـ أقترح ان تجلس زوجتي بجانب الدكتور بردون حتى يتحدثا عن ذكرياتهما في باريس ، فقد مضت فترة طويلة لم ير احدهما الآخر أما المس بويد ، فأرجو ان تسلموها الي حتى تستمتع بالسخرية مني والتعريض بي كيفما تشاء .

وأشرق وجه الدكتور اربثنوت لان هذا الترتيب في الجلوس الى المائدة سيتيح له ان يجلس بين الممثلة الحسناء وراقصة الباليه الفاتنة ، ولم يكن هو يرجو اكثر من هذا . وقد عبر عن ابتهاجه بقوله :

ـ يلوح ان سهرتنا الليلة ستكون ممتعة .

وضحك أليفر عاليا ، وراح ، كالمعتاد ، يتحدث كثيرا عن نفسـه وعن امكانياته ، وشجاعته ومغامراته ، وبدا لسوزي بوضوح انه يعتبـر نفسه أسعد انسان . أما مرجريت فقد جلست بجانب آرثر تتحدث وتضحك وهي تبدو كعادتها رائعة الجمال .

وألقى أوليفر هادو بضع فكاهات جنسية ولكنها غير مكشوفة اثارت ضحكات الجميع ، وتبعته زوجته مرجريت فألقت فكاهتين مكشوفتـين جعلتا سوزي والفتيات الاخريات يطرقن برؤوسهن خجلا ، وازداد وجـه آرثر شحوبا وهو يسمع هذه العبارات البذيئة الوقحة تتساقط من فـم مرجريت ببساطة وهي تضحك عاليا وكأنها لم تقل شيئا معيبا .

وانتهز آرثر فرصة لينصرف حتى ينسى منظر مرجريت وهي تلقي بهذه البذاءات ، وحتى ينسى رنين صوتها الغريب اثناء الالقاء .

وقالت له وهي تصافحه :

ــ يجب ان تأتي لزيارتنا فيالكارلتون . اننا نقيم هناك في احد اجنحته .

وكانت سوزي قد ذهبت الى غرفة الملابس لتأتي بمعطفها ، وفي اثناء خروجها ، التقت بمرجريت عند الباب ، فقالت لها هذه :

ــ هل يمكن ان تأتي مع الدكتور بردون لزيارتنـــا يا مس بويد في الكارلتون ؟

وكان آرثر واقفا بالقرب منهما مطرق الرأس ، ذاهل الفكر ، فأشارت سوزي اليه وقالت بجفاء :

ــ انظري ماذا فعلت به ؟

وعندئذ رفع ارثر وجهه الشاحب المعذب ، ونظر اليهما فـــي صمت وألم ، وعادت سوزي تقول بمرارة :

ــ هل تعلمين انه ينتحر ببطء من اجلك ؟ انه لا يستطيع النوم في الليل، انه يتعذب اكثر من عذاب المحكوم عليه بالاعدام . انني ارجو ان يكون عذابك يوما اضعاف عذابه .

فقالت مرجريت ساخرة :

ــ انني لا أدري لماذا تعتبين علي وكان الاجدر بك ان تفرحي وتسعدي بما حدث .

ــ لماذا ؟

ــ لانك لا تستطيعين ان تنكري انك غارقة الى اذنيك في حب آرثر .

وهبط قلب سوزي الى ثدييها ، فقد كانت تعتقد ان سرها لا يعرفــه أحـــد .

وأرسلت مرجريت ضحكة خفيفة ، وانصرفت عنهما .

الفصل الحادي عشر

حنان الحب

أمضى آرثر بردون يومين او ثلاثة وهو في حالة تردد وحيرة ، ولكن الخاطر الذي ومض في ذهنه ظل ينمو ويقوى حتى أصبح رغبة قوية مستبدة تكتسح امامها كل شيء . وهكذا ذهب الى فندق كارلتون ، فلما علم ان أوليفر هادو غير موجود في جناحه مع زوجته ، صعد اليها وطلب مقابلتها ، دون ان يذكر اسمه ، فلما دخل غرفة الاستقبال ، وجد مرجريت جالسة ، فنهضت في ارتباك ، ثم رمقته بنظرة طويلة ، وكان وجهها شاحبا ، وعندئذ قال لها :

ــ لقد طلبت مني أن أزورك هنا ! هل تسمحين لي بالجلوس ؟

فأحنت رأسها ، وظل الاثنان وجها لوجه في صمت تام ، وفجأة قالت له بصوت أجش :

ــ لماذا جئت ؟

وكان الاثنان قد شعرا انه لا جدوى من التظاهر بعدم الاهتمام ، ومن ثم أجاب آرثر قائلا بصراحة وأسى :

ــ ظننت انني قد أستطيع مساعدتك .

ــ انني في غير حاجة الى مساعدة احد . انني سعيدة . ليس لدي ما أقوله لك .

وكانت تتكلم بسرعة ، وبعصبية واضحة دون ان تحول نظراتها عن

الباب كأنما تخشى أن يفاجئهما احد .

وقال هو بالحاح :

ــ أعتقد ان من الضروري أن نتبادل الحديث معا ، فاذا كنت ترين ان هذا المكان غير مناسب ، فهل تعدين بزيارتي في مسكني ؟

فهتفت قائلة في بطء وكأنما الكلمات تنتزع من شفتيها انتزاعا :

ــ انه سيعرف . اتعتقد ان هناك شيئا يمكن ان يخفى عليه ؟

وفزع آرثر وهو يلمح الرعب المميت يطل من عينيها ، وأحس بقلبه يخفق بالحب والحنان ، وهو يقول :

ــ أحب ان تعرفي انني لا أعتب عليك في أي عمل يصدر عنك . مهما حدث منك فانه لن يقلل بأي حال حبي لك .

ــ أوه ! لماذا جئت ؟ لماذا تعذبني بمثل هذا الحديث ؟

وانفجرت باكية ، ثم راحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهي أشد ما تكون انفعالا . وأخيرا قالت :

ــ اذا أردت ان أعاقب على ما سببته لك من آلام ، فيمكنك ان تطمئن الآن . لقد تمنت سوزي أن أتعذب اضعاف عذابك ، ولعلها لا تعلم ان هذا هو الواقع الآن .

وأرسلت مرجريت ضحكة عصبية ، وألقت بنفسها راكعة عند قدمي آرثر ، ثم أمسكت بيده هاتفة :

ــ هل تظن هي أنني لا ارى كيف تتعذب يا حبيبي ؟! ان قلبي يكاد يتمزق ويدمى كلما نظرت الى وجهك المحزون وعينيك المعذبتين . أوه . لشد ما تغيرت يا آرثر . انني ما كنت لأصدق أن انسانا ما يتغير بهذا

الشكل في أشهر قليلة ، وأنا السبب في هذا كله . أوه ، آرثر ، آرثر ، يجب أن تغفر لي وترحمني .

فقال بحرارة :

ـ ولكن ليس هناك ما أغفره لك يا حبيبتي !

فنظرت اليه وقد تألقت عيناها بوميض غريب ثم قالت :

ـ انك تقول هذا دون أن تدرك الحقيقة . ومع ذلك ، فلو انك تعرف حقا مبلغ ما تحملت من عذاب في سبيلك .

وبذلت جهدها لتسترد هدوءها ، وقال هو :

ـ ماذا تعنـــين ؟!

ـ انه لم يحبني يوما ، وما كان ليفكر في لحظة ، ويربطني بعجلته لو لم يرغب في الانتقام منك بسلبك اعز انسانة في حياتك . انه يكرهك ، وكل الذي فعله بي كان الغرض منه تعذيبك . ولست أنا التي أرتكب كل هذه التصرفات الطائشة الشاذة ، وانما هو الشيطان الذي تقمصني وجعلني أكذب عليك ، وأخدعك ، وأغدر بك ، وأسبب لك هذه الآلام .

ونهضت واقفة ثم استطردت قائلة :

ـ لقد خدعني في باريس ، فتظاهر ، ذات يوم ، بأنه على وشك الموت ، واضطررت الى مساعدته وادخاله المرسم ليستريح ويسترد قواه . ولست أدري كيف استطاع ان يسيطر علي بقوى خفية، فيمحو شخصيتي ، ويسلب ارادتي ، ويجعلني ألعوبة بين يديه ، وكلما حاولت المقاومة ...

واختلج وجهها بالالم والخوف ، وهي تستطرد قائلة :

ـ لقد صارحني هو بهذه الخدعة ، وانه تمارض امامي ليتمكن من حبك خطته ، وقال انه استدرج سوزي بعيدا عن المنزل عن طريق ارسال برقية

لها باسم صديقتها نانسي التي رأى صورتها في مرسمنا ، وعليها اسمها مكتوبا بوضوح . ولشد ما راح يضحك عاليا لبراعته !!

وتوقفت فجأة عن الحديث ، وطافت بوجهها امارات خوف شديد وهي تردف قائلة :

ـ انني حتى هذه اللحظة أعتقد انه هو ، بتلك القوى الخفية ، يدفعني الى مصارحتك بكل هذا حتى يزيد من ألمك وعذابك . انني أتعذب يا آرثر ، انني أعيش في جحيم . لقد عرف كيف ينتقم منك أفظع انتقام .

ـ ينتقم مني ! لماذا ؟

ـ لانك ضربته كالكلب في المرسم ، وقد كان في مقدوره ان يقتلك بقوته البدنية الهائلة ، ولكنه رأى ان يعذبك عذابا شديدا على طريقته الخاصة . وقد استجديت منه كثيرا الرحمة بي وبك . ولكن دون جدوى .

وكانت مرجريت تتحدث بانفعال شديد ، اذ كانت تلك اول مرة تفضي بآلامها لانسان محب رحيم ، وهكذا اندفعت مشاعرها اندفاع المياه الحبيسة وراء سد تحطم .

وبذل آرثر جهده ليهدىء من ثائرتها ثم قال :

ـ انك مريضة مجهدة ، ويحسن ان تتمالكي اعصابك ، فان أوليفر هادو ليس الا بشرا على كل حال .

ـ نعم . وكثيرا ما كنت تضحك ساخرا من ادعاءاته . ولكنني أعرف الآن أن له قوى رهيبة يستطيع السيطرة بها على الغير اذا أتيحت له الفرصة! لقد جعلني في ذلك اللقاء الاول ـ حين انفرد بي ـ أرى عوالم غريبة عجيبة ، وأشهد مناظر تؤجج نيران الجسد رغبة واشتهاء ، وأطلعني على مشاهد تملأ النفس رهبة وخوفا حتى خيل الي أني سأفقد عقلي .

وخيل الى آرثر ان المسكينة فقدت عقلها ، فعلا ، بسبب ما عانته من عذاب على يدي أوليفر هادو ، فتقدم نحوها ووضع يده على رأسها بعد أن رآها تخفي وجهها بين يديها ، ثم قال :

ـ اسمعي ! يجب ان تأتي معي الآن ، فمن المستحيل ان تستمري في حياتك معه ، يجب ألا تعودي الى قصره في قرية اسكين .

ـ لا أستطيع ان افترق عنه ، اننا مرتبطان معا برباط الزوجية .

ـ ولكن حياتك معه أصبحت مستحيلة ، تعالي للاقامة مع سوزي حتى نفكر فيما ينبغي أن نفعله لانقاذك من براثنه .

ـ لا لا . لا فائدة من هذا كله . انكما لن تستطيعا انقاذي .

ـ لماذا ؟

ـ لانني برغم كل ما حدث ، لا زلت احبه اشد الحب !

ـ مرجريت ؟!

ـ انني أنفر منه وأتقزز من منظره ، ومع ذلك فلست أدري ماذا يجعلني أتلهف اليه وأشتهي عناقه رغما عني . ان جسدي يتحرق شوقا اليه ويلتهب بالرغبة فيه .

وأشاح آرثر بوجهه ارتباكا ، وبدا عليه أنه يتراجع نفورا رغما عنه، فقالت له :

ـ يبدو اني جعلتك تشمئز مني !

واضطرم وجهه احمرارا ، ولم يجب ، فعادت هي تقول :

ـ آه لو انك تعرف الحقيقة فقط !

وكان ثمة نبرات غريبة في صوتها جعلته يلتفت اليها بسرعة ، وعندئذ

رأى وجهها ملتهبا بالدماء الفائرة ، وصدرها يضطرب بالانفاس اللاهثة ، وكأنما توشك ان تنفجر باكية ، فهتف قائلا :

ـ لا لا بحق السماء . تمالكي نفسك .

واستدارت بظهرها اليه ، وأخفت وجهها بين يديها ، وقالت بصوت الانسان الذي ينتزع الكلمات انتزاعا لفرط الخجل والشعور بالعار :

ـ لو كنت معنا في مونت كارلو ، لسمعت ما يقوله الناس عنا هناك والله وحده يعلم كيف عرفوا هذه الحقائق ، لقد عرفوا انه كان يربح الاموال الطائلة على موائد المقامرة بواسطتي . وكان هو يقنع بأن يملأ نفسي بالرذيلة والشر ، لقد طرد كل ومضة طاهرة في روحي ، انني أنحدر وأنحدر حتى أصبحت بؤرة للاثم . انني أشمئز من نفسي ، انني لا أستطيع ان انظر الى وجهي في المرآة دون ان أرتعد من فرط الاشمئزاز .

وتفصد العرق البارد من جبين آرثر ، وقد رأى انه أمام لغز محير لا يدري له حلا ، هذا بينما استطردت مرجريت تقول :

ـ عندما كنا نتناول العشاء معا على مائدة الدكتور اربثنوت ، ألقيت فكاهتين بذيئتين ، ورأيتك وأنت تجفل من الدهشة والخجل . ولكن الحقيقة المرة ان التي لفظت هذه البذاءات ليست مرجريت التي تعرفها وانما هي مرجريت التي ملأ نفسها ذلك الشيطان الآدمي بالرذيلة والشر . ان في اعماقي الآن ، كما يبدو لي ، شخصيتين : شخصيتي الاولى التي تعرفها وتحبها وتحبك ، وهي في طريقها الى الضعف والانزواء ، ولن تلبث ان تتلاشى ، وبذلك يخلو الطريق للشخصية الاخرى الرهيبة الشريرة لكي تستبد بجسدي العذري ؟

ـ عذري ؟

ـ نعم ، انني رغم كل شيء ، لا زلت عذراء . انه منذ ان ربطني بالزواج

اليه لم يحاول ابدا ان يمسني ، انه لا يحمل لي ذرة من الحب .

ــ اذا كان لا يحبك ، فلماذا يبقيك معه ؟ ماذا يريد منك ؟

ــ انني لا أدري ، ولكنني بدأت أرتاب !

ونظرت الى آرثر بثبات ، وقد استردت هدوءها تماما ، ثم قالت :

ــ أعتقد انه يريد استغلالي في احدى تجاربه السحرية ، ولست أدري ان كان مجنونا أم لا . ولكنني أعتقد انه يقوم بتجربة رهيبة ، وانه محتاج الي لنجاحها ، وهذا هو ضمان سلامتي .

ــ ضمان سلامتك ؟!

ــ ان نجاح تجربته الرهيبة متوقف علي . ولهذا فهو لن يقتلني ، ولعلي أستطيع في خلال هذا أن أسترد حريتي .

وهنا وضع آرثر يديه على كتفيها وقال بهدوء يشوبه الحزم الشديد :

ــ اسمعي يا مرجريت ، يجب ان تسيطري على أعصابك ، انك اذا تماديت في هذه الاوهام فسوف تفقدين عقلك تماما . ويجب أن تأتي معي الآن ، ولا شك أنك ستعودين الى حالتك الطبيعية عندما تتحررين من سيطرته ، ومن الممكن اخفاؤك عنه تماما ريثما يتخذ المحامون الاجراءات الحاسمة للفصل بينكما .

ــ انني لا أجرؤ .

ــ أعدك وعدا اكيدا بألا ينـالك سوء منـه ! كيف يستطيع أن يسيء اليك في مدينة كبيرة كهذه ؟ لسوف أمضي بك فورا الى سوزي ، وبعد أسبوع سوف تسخرين من أوهامك هذه كلها .

ــ ومن أين ندري أنه ليس موجودا بالغرفة الآن ينصت الى كل كلمة تقولها ؟

وكان السؤال مفاجئا بحيث جعل آرثر يتلفت حوله رغما عنه ، ولكنه لم يلبث ان قال :

ـ كيف تقولين هذا والغرفة كما ترين خالية تماما الا منك ومني ؟

ـ اذن فأنت لا تعرف ما لديه من قوى خفية رهيبة . هل تذكر الاساطير المخيفة التي كانت تقصها علينا المربيات ونحن أطفال ؟ انني أراه احيانا واحدا من هذه الوحوش الخرافية كلما رأيته مقبلا علي في قصره بقرية اسكين ، وعيناه تضطرمان احمرارا ، ووجهه أغبر ، وشعره مشعث !

وأخفت مرجريت وجهها ثم قالت ، وهي ترتعد :

ـ لقد أخذني ذات يوم ، بعد وصولنا الى لندن مباشرة ، لزيارة امه ، أتعرف أين تقيم ؟ انها تقيم في مستشفى الامراض العقلية منذ اثنين وعشرين عاما . ويا لهول ما رأيت ! لقد رأيتها تقيم في غرفة مبطنة بالجلد ! وكانت شديدة الشبه به من ناحية ضخامة الجسم واكتناز الوجه ، وكانت نظراتها الزائغة الدموية تشبه نظراته كلما جاء الى القصر بعد غيبة بضع ليال يقضيها عادة في ليفربول مع البغايا ومدمني المخدرات .

وازداد جسم مرجريت ارتعادا وهي تستطرد قائلة :

ـ يا الهي ! ان منظره في تلك الحالة يثير الرعب فى قلب اشجع الناس ، أعتقد انه يتلذذ برؤية غيره من الناس يتعذبون .

ولم يستطع آرثر ان يحتمل اكثر من هذا ، فتناول زجاجة ويسكي ، وسكب كمية منها في كأس قدمها الى مرجريت ، وهو يقول :

ـ اشربي هذا .

ـ ما هذا ؟

ـ لا تسألي ، اشربيه جرعة واحدة .

ولما أطاعته وشربت ، توهجت وجنتاها بالحمـرة ، وأحست بدبيب الشجاعة يسري في عروقها ، وهنا قال لها ارثر امرا :

ــ والآن ، هلم معي !

ولم تقاوم هذه المرة ، وانما أسلمت له قيادها ، فأسرع بها الى مدخل الفندق غير حافل بنظرات الدهشة التي أطلت من عيون اثنين او ثلاثة من النزلاء ، وهم يرون سيدة رائعة الجمال تغادر الفندق بلباس نومها .

وما كادت تستقر في داخل مركبة مأجورة مع آرثر ، حتى تهالكت مغشيا عليها .

ولما وصلا الى مسكن سوزي ، أرقدها آرثر على متكأ ، وقص على سوزي الامر ، وذكر لها ما يريده منها ، عندئذ نسيت تلك الفتاة الطاهرة القلب كل شيء الا أن مرجريت صديقتها مريضة ، وفي حاجة الى رعايتها وسرعان ما تعهدت بأن تنفذ كل ما يريده منها .

وظلت مرجريت اسبوعا كاملا في شبه غيبوبة ، ولكنها بدأت بعد ذلك تسترد صحتها وحيويتها ، فقرر آرثر نقلها الى « فيلا » صغيرة انيقة بين مزارعه في هامشير المواجهة لجزيرة « وايت » . وكانت « الفيلا » تختفي بين اجمل ما تقع عليه العين من أشجار وأزهار ومناظر طبيعية ساحرة . ولكن مرجريت لم تبد اي اهتمام بكل هذا الجمال الطبيعي ، وانما بدت كفتاة خرجت من مرض طويل منهكة متعبة ، لا تريـد من الدنيا الا أن تستريح . وقد وافقت بلا أدنى اعتراض على كل ما اقترحه عليها آرثـر للخلاص من أوليفر هادو بالطرق القانونية ، وسرعان ما رفع محاموهـا الدعوى امام المحاكم طالبين طلاقها من زوجها بسبب قسوته الشـديدة في معاملتها .

وبعد رفع الدعوى بيومين ، حمل الممرض بطاقة أوليفر هادو الى آرثر

في غرفة فحص المرضى بعيادته الخاصة ، وما ان انصرف المريض ، حتى أذن الممرض لهادو بالدخول ، فأقبل هذا بجسمه الضخم ووجهه المكتنز بالشحم واللحم ، وأشار آرثر اليه بالجلوس ، ثم قال له ببرود :

ــ ماذا تريد ؟

ــ ألا تعرف ماذا أريد ؟

ــ أجب بسرعة ، فان وقتي ضيق .

ــ حسنا . جئت لأقول لك انني سأعارض في دعوى زوجتي للطلاق وأقدمك للمحاكمة بتهمة اغرائها على الفرار من بيت الزوجية معك ...

ــ تبا لك من وحش مجرم !

ــ ان هناك من رآك وأنت تقودها الى خارج الفندق ، وهي بملابس النوم . ويمكنك ان تتصور أثر هذه الفضيحة عليك كطبيب معروف وعلى مركزك الاجتماعي كأستاذ محاضر في كليات الطب !

فابتسم آرثر ساخرا ، وقال :

ــ هل نسيت ان هذه الدعوى ستنظر في جلسات سرية ؟

فنظر هادو اليه برهة طويلة قبل ان يقول :

ــ آه ، نعم ! انك على حق . لقد نسيت هذا .

ــ اذن ، يحسن بك أن تنصرف الآن .

وهز أوليفر كتفيه ، ونهض منصرفا في سكون .

وفي خلال هذا كله ، كانت مرجريت قد بدأت تسترد حالتها الطبيعية، فاذا جمالها يتفتح مرة اخرى ، واذا ضحكاتها ترن في حجرات « الفيلا »، واذا آمالها تنتعش ، وكانت جلسة النطق بالحكم قد تحددت في أواخر

شهر يولية ، أي قبل العطلة الصيفية الطويلة ، ومن ثم قررت سوزي أن تصحب مرجريت بعد الحكم الى رحلة خارج البلاد .

ولكن لشد ما كانت مفاجأة سوزي حين رأت اعصاب مرجريت تتوتر كلما اقترب يوم الجلسة ، ولم تلبث ان اخذت تضطرب بمختلف انفعالات الخوف والقلق يوما بعد يوم ، فزايلها شعورها بالبهجة ، وأصبحت تقضي الساعات الطوال في صمت وذهول ، فلم يسع سوزي الا ان ترسل خطابا الى آرثر تصف فيه حالة مرجريت الطارئة ، وتعرب فيه عن مخاوفها وقلقها، وتقـــول :

« ... انني شخصيا أصبحت اشعر بالرعب في هذا المكان ، يخيل الي أن هادو بطريقة ما ملأه بالاشباح والارواح ، واني كثيرا ما أستيقظ في سكون الليل بعد أن أشعر أن عيونا براقة تحملق في وجهي ، وتكاد تنفذ بنظراتها الى أعماق نفسي . وعلى الجملة أشعر ان حدثا رهيبا يوشك أن يقع ، فأرجوك ان تسرع بالحضور » .

وكانت سوزي تفخر بما تمتاز به من حكمة واتزان وبعد نظر ، ولكنها لم تستطع ان تطرد عن نفسها الشعور بالشقاء والمذلة ، وهي ترى الرجل الوحيد الذي خفق له قلبها بأعظم وأسمى حب لا ينظر اليها الا كمجرد أداة في خدمة مرجريت . انه يضحي براحتها وبعواطفها الشخصية بهدوء ، وكأنما هي انسانة لا شعور لها ولا عاطفة ، وانما خلقت فقط للعنايـــة بمرجريت .

وسارت مسافة طويلة لايداع الخطاب في صندوق البريد ، ولمـــا عادت أوت الى غرفتها وجلست في هدوء تنظر الى السماء المتألقة بالنجوم ، وأحست بالراحة النفسية للسكون المخيم على كل شيء حولها . ولما شعرت بالرغبة في النوم ، نهضت الى فراشها واستغرقت في نوم عميق لم تستمتع به منذ ليال كثيرة . وعندما استيقظت ، وجدت الشمس تسكب ضوءهـــا

الساطع في جوانب الغرفة ، فتنهدت بعمق وارتياح ، وراحت تتأمل ، وهي جالسة في فراشها ، الأشجار الغارقة في ضوء الشمس ، والسماء الصافية الخالية من اي اثر للسحب . وبدا لها ان جميع مخاوفها لا أساس لها في الواقع ، وان الحياة جميلة، وان عليها ان تضحك ساخرة من أوهامهـــا الجوفـــاء .

ونهضت في طريقها الى غرفة مرجريت ، ولكنها وجدت الغرفة خالية ، ولاحظت ان الفراش لا يدل على ان احدا نام فيه ، كما لمحت رسالة صغيرة مثبتة بدبوس في الوسادة ، فلما تناولتها ، قرأت فيها ما يلي :

« لا جدوى من كل هذا . انني لا أستطيع ان أتحكم في نفسي اكثر مما فعلت ، انني عائدة اليه ، فلا تتعبوا انفسكم من اجلي ، فان حالتي ميئوس منها » .

وندت عن سوزي شهقة خفيفة رغما عنها ، وكان أول ما خطر ببالها ما سوف يعانيه آرثر المسكين من ألم وعذاب حين يفاجأ بهذه الصدمـــة الجديدة التي ستعود به الى شقائه السابق . ولكنها لم تلبث أن تمالكـت اعصابها وقررت ان تواجه الواقع المؤلم وتسرع بركوب قطار الحادية عشرة الذاهب الى لندن . ولما أتمت ارتداء ملابسها وتأهبت للخروج من منزلها ، اذا بالباب يفتح ويدخل آرثر ، فشحب وجهها وبدا الفزع في عينيهـا ، وهي تقول :

ـ كنت في طريقي للسفر الى لندن لرؤيتك . كيف عرفت ما حدث ؟

ـ لقد أرسل هادو الي صندوق شيكولاتة في الصباح الباكر مع بطاقة يقول فيها « الشاطر يضحك في النهاية » .

ـ يا له من وحش !

وقرأ آرثر الرسالة القصيرة التي تركتها مرجريت ، ثم قال :

ـ أخشى أن أقول انها على حق . فحالتها أصبحت ميئوسا منها فعلا ، ولا شك ان للرجل نوعا من السيطرة الخفية على ارادتها .

وقالت سوزي في اشفاق :

ـ انني لم أعد أستطيع الآن ان أغضب من أي عمل تقوم به . فأنا أعتقد انها أصبحت ضحية بائسة لقدر رهيب . ولا يسع الانسان الا ان يرثي لها ويرحمها .

فهتف آرثر قائلا وهو يذرع الغرفة في انفعال شديد :

ـ وهل سيرحمها هو ؟ ان قلبي يقطر دما كلما تذكرت ألوان التعاسة والشقاء التي تسود حياتها معه . ورغم هذا فليس في مقدورنا ان نفعل شيئا لانقاذها ، ان رجال البوليس لا يستطيعون أن يتدخلوا بين رجل وزوجته لانه يسيطر عليها بسحره !

ـ اذن فأنت تعتقد انه ساحر حقا ؟

فهتف قائلا :

ـ انني لا أدري ماذا أعتقد ، ولكن المؤكد اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا لزوجة تريد البقاء مع زوجها بمحض اختيارها . وعدا هذا فاني أكاد أكون أسيرا لعملي في لندن ولا أستطيع ان أتفرغ لمساعدتها يوما واحدا ، بل ان علي أن أعود الى المستشفى بعد ساعتين على الاكثر ، انها مسكينة حكمت على نفسها بالاعدام .

وفجأة قالت سوزي :

ـ اذا كان أوليفر يستعين حقا بالسحر في تنفيذ اغراضه ، فلماذا لا نقاومه بنفس سلاحه ؟ لماذا لا نلجأ الى الدكتور بورهيت ، وهو حجة في مثل هذه الشؤون ، ليساعدنا في الانتصار عليه ؟

فجمع آرثر نفسه ، وقال بهدوء :

ـ انني آسف ! انني لا أستطيع ان انتهك حرمة عقلي وسلامة تفكيري وأومن بشيء اسمه السحر . ان الرجل دجال مشعوذ ماكر استطاع ان يتلاعب بعواطف وأعصاب مرجريت ليسيطر على شخصيتها ، هذا كل ما في الامـــــر .

ـ حتى بعد كل ما رأيت بنفسك ؟

ـ اذا كنت أرى بعيني ما لا يستسيغه عقلي، فلا شك ان عيني تخدعانني.

ـ حسنا . سأذهب انا الى باريس .

الفصل الثاني عشر

الميتة الحية

جلست سوزي في غرفة مكتبة الدكتور بورهيت تبادله الحديث بشأن مرجريت وتنصت اليه وهو يحدثها عن تجارب علماء الكيمياء القديمة والمشتغلين بموضوعات السحر الاسود. وقد لفت انتباهها بصفة خاصةقوله أنه قرأ كثيرا عن قدرة بعض هؤلاء السحرة على الانتقال بأرواحهم من مكان الى مكان ، ثم تجسيد الروح في المكان الذي انتقلوا اليه فيبدو للناس أنهم من « أهل الخطوة » الذين قيل ان في مقدورهم الانتقال الى بلد بعيد في لمح الطرف ، ثم العودة منه . كما لفت سمعها ايضا حديثه عن امكان تجسيد روح المتوفي بعد تحضيرها ، وانه يحفظ عن ظهر قلب كل ما ينبغي أن يقال في مثل هذه الحالات ، ولكنه لم يحاول ان يجري اية تجربة ، احتراما للموتى ، وحفظا لحرمة الميت .

وقد قال في معرض حديثه :

ــ والانسان العاقل في مثل هذه الحالات لا يحسن به أن يسخر مما يقال عن السحر والسحرة ، اذا كان الذين يمارسون هذا النوع من السحر أناسا مثقفين باحثين عن الحقيقة وما وراء الطبيعة .

وهنا فتحت الخادم العجوز ماتيلدا الباب ، وأعلنت حضور المستر آرثر بردون من لندن ، وما لبث ان اقبل قائلا ، وهو يصافحهما :

ــ لشد ما سررت حين وجدتكما هنا معا !

فصاحت سوزي في جزع :

ـ هل حدث شيء ؟

ـ لقد رأيت مرجريت مرة اخرى .

وراح يتلفت حوله بنظرات شاردة وقد لاح عليه أن لـديه اقوالا خطيرة يريد أن يدلي بها ، ولكن ذهنه المشتت لم يسعفه في الحديـث بترتيب وانتظام . واخيرا قال بصوت كله انفعال وحيرة :

ـ ان اعصابي مضطربة اشد الاضطراب . وقد ذهبت اليك يا سوزي في الفندق ، فأخبروني بأنك خرجت ، فقلت في نفسي انك لا بد ان تكوني هنا عند الدكتور بورهيت .

ـ حسنا ، ان التعب والارهاق يبدوان عليك ، اجلس واسترح ريثما نصنع لك ماتيلدا قدحا من القهوة ، وبعدها يمكنك ان تخبرنا بكل شيء .

وبعد أن استراح آرثر ، وشرب قدحا كبيرا من القهوة التركية ، أخذ يتحدث عن الغرض الذي دفعه للاسراع بالحضور الى صديقه الدكتور بورهيت ، قال انه حاول جهده ان ينسى مرجريت ، وان يستغرق فيأعماله المتعددة ، ولكن طيفها كان يعذبه ليل نهار كلما تخيلها بين يدي الوحش الآدمي ، ولما خشي أن تنهار أعصابه ، انتهز فرصة عطلة نهاية الاسبوع ، وقرر الذهاب الى قرية اسكين للتحري عن أحوال مرجريت . وبعد ان وصل الى بلدة فيننج التي تبعد عن اسكين بثلاثة اميال ، نزل في فندق ريفي صغير ليجمع أولا كل ما يستطيع من معلومات عن أوليفر هادو الذي يمتلك معظم مزارع قرية اسكين . وزعم آرثر لصاحبة الفندق العجوز انه جاء الى تلك البلدة لشراء مزرعة معروضة للبيع ، ثم استدرجها في الحديث عن أوليفر هادو حتى علم منها أنه ، بحكم الوراثة ، عمدة المنطقة ، وأن ثروته الطائلة وشذوذ تصرفاته جعلاه أحاديث سكان البلدة وتندرهم ، وقد أجمع

معظمهم على انه ورث ذلك الجنون عن والدته، وان من مظاهر جنونه انه لا يسمح لواحد من الخدم ان يبيت في قصره ، وانما ينصرف جميع العاملين في القصر الى أكواخهم ليلا ، فلا يبقى فيه غيره هو وزوجته .

وتحدثت صاحبة الفندق عن مرجريت فقالت انها سيدة رائعة الجمال، وموضع عطف الجميع بسبب حياتها الشقية مع رجل مجنون منحوس يجلب سوء الحظ على كل من يتصل به . وأكدت المرأة العجوز ان الناس في المنطقة يعتقدون تمام الاعتقاد ان لدى اوليفر هادو قوى سحرية خفية يستغلها في قتل ماشية كل من يثير غضبه ، وتدمير زراعته واتلاف محصوله. ولهذا السبب اخذ الناس يتجنبونه ، ويبتعدون عنه ، وأصبح قصره والمزارع الواسعة الملحقة به ، في منطقة منعزلة تماما عن المناطق المأهولة .

وفزع آرثر وهو يتصور مرجريت في حياتها المنعزلة مع ذلك الوحش الآدمي ، ولم يغمض له جفن طيلة تلك الليلة ، حتى اذا بدأت الشمس تبزغ من خدرها ، أسرع بالذهاب الى اسكين حيث يقع قصر اوليفر هادو بين مزارعه الواسعة ، وكانت السماء في ذلك اليوم ملبدة بالغيوم ، والطريق الممتد الى اسكين موحشا مهجورا تنبسط على جانبيه البراري الصخرية الجرداء ، حتى اذا وصل اخيرا الى بوابة حديقة القصر ، توقف برهة، وراح يمد البصر بين الاشجار الباسقات الى واجهة القصر الفاخر . ثم لم يلبث ان دار مع السياج الخشبي المحيط بالحديقة حتى عثر على فجوة واسعة في السياج ، فنفذ منها الى داخل الحديقة ، بعد ان أيقن ان احدا لن يراه ، ثم تسلق السور الحجري الداخلي ، وهبط الى منطقة من الحديقة الضخمة ، وهي عبارة عن غابة كثيفة الشجر . وسار في حذر رغم اطمئنانه الى انه لن يلتقي بأوليفر هادو ، ذلك ان صاحبة الفندق قالت له في معرض الحديث ان أوليفر قلما يفارق الحجرات العليا الخاصة به في القصر ، وان أحدا لا يعرف ماذا يفعل في هذه الحجرات ليلا ونهارا ، وان زوجته المسكينة تتسلى أحيانا بالتجول وحيدة في ممرات الحديقة صباحا ومساء .

وظل آرثر في مسيره حذرا وهو يرجو ان يلتقي بمرجريت في اية لحظة ، ولكن هذا الامل لم يتحقق رغم مرور الساعات المتوالية ، حتى اذا وصل الى منطقة خالية يحيط الشجر بها في شبه دائرة ، قرر ان يختبىء بالقرب منها وهو يشعر في قرارة نفسه ان مرجريت لا بد ان تأتي الى هذه المنطقة لتستريح على المقعد الحجري القائم في وسطها بجوار جدول من المـــاء .

ولم يدر كم مضى عليه من الوقت ، لانه نسي ساعته في الفندق ، ولكنه شعر اخيرا بقلبه يرفرف بين جنبيه حين سمع وقع أقدام تقترب ، ثم ما لبث ان رأى مرجريت تتقدم ثم تجلس على المقعد الحجري . وظل هـــو برهة ساكنا خشية ان يفزعها اذا ظهر لها فجأة ، وخوفا من أن تصيح فزعا فتلفت اليهما الاسماع ، وأخيرا قرر ان يناديها باسمها في صوت خافت رقيـــق :

ــ مرجريت !

ولكنها لم تتحرك ، فكرر النداء بصوت اكثر ارتفاعا ، ولكنها ظلت في موضعها لا تريم ، وعندئذ لم يسعه الا ان يتقدم نحوها ويقف أمامها ثم يقـــول :

ــ مرجريت !

ونظرت اليه في هدوء وكأنما تراه لاول مرة في حياتها ، ومع ذلك فقد بدا عليها أنها كانت تتوقع ان تراه امامها .

وقال لها مرة اخرى :

ــ مرجريت ، ألا تعرفينني ؟!

فقالت ببرود :

ــ ماذا تريد ؟!

وفوجىء بهذا السؤال حتى لم يعرف كيف يجيب ، وفجأة زايلها الهدوء المرتسم على وجهها ، فوثبت مهتاجة وهتفت قائلة :

ــ أهذا أنت حقا ؟ لقد حسبتك شبحا يحاول ان يقلدك ؟

ــ مرجريت ؟ ماذا تعنين ؟ ماذا دهاك ؟

ولما بسطت يدها لتلمسه ، ابتسم قائلا :

ــ انني مثلك لحم ودم ، لا تخافي .

وأغمضت عينيها كأنما تحاول ان تتمالك اعصابها المشتتة ، ثم غمغمت قائلة :

ــ لقد كنت أهذي وأرى خيالات وأشباحا في الايام الاخيرة ، ولهذا ظننت ان عيني تخدعانني حين رأيتك .

ثم انتفضت قائلة بحرارة :

ــ ولكن ماذا تفعل هنا ؟ يجب ان تنصرف . وكيف جئت ؟ أوه ، لماذا لا تدعني وشأني ؟

ــ لقد عشت في جحيم من الخوف من ان يحدث لك شيء رهيب ، ولهذا اضطررت للحضور .

ــ أرجوك بحق الله أن تذهب ، فأنت لا تستطيع أن تفيدني بشيء ، وهو اذا عرف انك أتيت ...

وتوقفت عن الحديث فجأة وقد أطل الرعب من عينيها ، وأمسك آرثر يديها قائلا في حنان :

ــ مرجريت ، انني لا أستطيع ان أنصرف . لا أستطيع أن أتخلى عنك في هذه المحنة . ارجوك بحق السماء ان تصارحيني بالحقيقة ، فاني شديد القلق عليك .

وكان يشعر بالفزع والاشفاق وهو يرى التغيير الرهيب الذي طرأ عليها منذ رآها آخر مرة . لقد كان جسمها كله شاحبا ، وعلى وجهها صفرة الموت ، وفي جبينها خطوط محفورة ، وفي عينيها بريق مخيف . لقد زايلها الشباب بنضارته فجأة ، وبدت كمريضة مشرفة على الموت .

وسألها قائلا :

ـ ماذا بك ؟!

فتلفتت حولها ، وقالت :

ـ لا شيء . أوه ، لماذا لا تنصرف ؟ لماذا تقسو علي الى هذه الدرجة ؟

فألح قائلا :

ـ بل يجب أن أعمل على انقاذك .

فهزت رأسها قائلة بصوت كأنه صادر من جسد لا روح فيه ولا حياة:

ـ لقد فات الاوان ، لا شيء يمكن أن ينقذني من مصيري ، عرفت اخيرا ماذا يريد مني . انه يريدني لاتمام احدى تجاربه الرهيبة ، وان الايام تجري سراعا .

ـ ماذا تعنين بقولك انه يريدك لاتمام تجربة له ؟

ـ يريد حياتي .

فندت عن آرثر صيحة الم وتوجع وقلق، ولكنها رفعت يدها وأردفت قائلـــة :

ـ لا جدوى من المقاومة . انها لن تأتي بأية فائدة . وأعتقد اني سأسعد عندما يحين أجلي ، لاني على الاقل سأستريح من عذابي .

ـ ولكن لاشك انك مجنونة لاصرارك على البقاء معه .

ـ انني لا اعرف ، ولكنني اعرف انه مجنون .

ـ اذا كانت حياتك في خطر ،فأرجوك بحق السماء ان تأتي معي ، فأنت رغم كل شيء حرة التصرف . انه لا يستطيع ان يمنعك .

ـ لو اني انصرفت معك الآن ، لاضطررت للعودة اليه كما حدث في المرة السابقة . لقد ظننت في تلك المرة انني حرة التصرف ، ولكنني عرفت تدريجيا انه راح يناديني ويأمرني بالعودة ، وحاولت ان أقاوم . ولكنني لم أستطع ، ولم يسعني الاالعودة اليه .

ـ ولكنه لامر عظيم ان تعيشي بمفردك مع رجل مجنون خطر !

ـ انني في أمان اليوم ، لانه لا يستطيع اتمام تجربته الا في جو حـار جاف ، فاذا لم تتعرض هذه المنطقة لموجة حرارية هذا العام ، فسوف أظل في أمان من خطره حتى الصيف التالي .

ـ أوه ،ارجوك بحق الله ألا تتحدثي هكذا يا مرجريت . انني أحبك ، واريدك بجانبي دائما . الا تأتين معي وتتيحين لي الفرصة لرعايتك ؟ اعدك بأنك ستكونين بعيدة عن اي سوء .

ـ انك لم تعد تحبني يا آرثر ، انك فقط ترثي لي وتعطف علي .

ـ لا .. لا .

ـ بل نعم . هذه هي الحقيقة . لقد عرفت ان حبك الجارف تحول الى مجرد عطف واشفاق ورثاء ، وعندما عشـت في « فيلتك » بمزارعك ، تركتني في رعاية سوزي ، ولم تحاول ان تراني اكثر من مرة كل اسبوع . فهل تذكر يوم قلت لي في باريس انك تكره ساعات الليل لانها تفصلك عني ؟ هل تذكر كيف كنت تأتي الى مرسمي ملهوفا قبل الموعد بدقائق ؟ لا ، لا تقل شيئا ، انني لا ألومك ، فأنا الآن أختلف أشد اختلاف عن الفتاة التي أحببتها ، انني لم أعد مرجريت التي كنت تعرفها .

ــ انني لا أستطيع ان أحب احدا كما احبك .

فوضعت يدها على ذراعه وقالت :

ــ اذا كنت تحبني حقا ، فاني أرجوك وأتوسل اليك ان تمضي . انك لا تعرف مدى الخطر الذي تعرضني اليه ببقائك هنا . وعندما أموت أوصيك بالزواج من سوزي . انها تحبك بكل ذرة في كيانها ، وهي جديرة بحبك ، وستكون خير زوجة لرجل عاقل متزن مثلك .

ــ أوه ، مرجريت ، لا تنصرفي ، تعالي معي . أرجوك .

ــ وكن على حذر ، لانه لم يغفر لك ما فعلت به ، واذا أتيحت له الفرصة، فلن يتردد في قتلك .

وأجفلت فجأة كأنما سمعت صوتا مفاجئا ، ثم هتفت هامسة وقد اختلج وجهها بالرعب والفزع :

ــ أرجوك بحق السماء ان تنصرف .

ثم استدارت بسرعة ، وقبل ان يلحق بها ، كانت قد اختفت بين الاشجار .

❋

ولما فرغ آرثر من ذكر هذا كله للصديقة سوزي ، وللدكتور بورهيت، قال بورهيت بهدوء وهو يتوجه نحو احدى خزانات كتبه :

ــ وماذا تريد مني أن أنصحك به ؟

ــ أعتقد أن اوليفر مجنون ، وقد ثبت ان امه تقضي حياتها في مستشفى للامراض العقلية . ولحسن الحظ اتصلت بمدير المستشفى فقال لي ان من المحتمل ان يكون أوليفر مجنونا ايضا ، ولكن ليس من سبيل الى اتخاذ أية خطوة ايجابية لاثبات هذا الجنون في الوقت الحاضر . ومن ثم أسرعت

بالحضور لأعرف ماذا ينبغي ان نفعل لانقاذ مرجريت. فاذا افترضنا ان أوليفر في حالة تشبه الخبل ، فمن المحتمل ان يجري بعض التجارب التي تحتـاج الى تضحية روح بشرية ـ هذا محتمل جدا .

وارتعدت سوزي وهي تذكر ما سمعته في مونت كارلو ، ثم قالت :

ـ كان يقال عنه في مونت كارلو انه يجري تجارب لخلق مادة حية من مواد ميتة ، وان هذه الاحياء المصنوعة لا تعيش الا على الدماء البشرية . وأعتقد ان الدكتور بورهيت يعرف الكثير عن تجـارب من هذا النوع أجراها العلماء القدامى .

ـ نعم . ان لدي كتابا وضعه بارسليوس ، وتحدث فيه عن اطعام هـذه المخلوقات البشعة بالدماء البشرية .

وصاح آرثر في رعب بينما اردف الدكتور بورهيت قائلا :

ـ ومما يؤيد هذا الرأي أن مرجريت لا تزال في حالتها العذرية كما تقولون . والمعروف ان معظم اعمال السحر الاسود لا تنجح الا بواسطة غلمان لم يبلغوا سن الحلم ، او فتيات محتفظات بعذريتهن !

وهتف آرثر في يأس :

ـ ولكن ماذا ينبغي ان نفعل ؟ اننا لا نستطيع ان نتركها بين يدي رجل مجنون كهذا . وانها الآن قد تكون في دور الاحتضار .

ـ ليس في وسعنا أن نفعل اكثر من الانتظار .

ـ وما جدوى الانتظار اذا وقعت المأساة !

ـ اننا نعيش في عالم متحضر ، ولـيس هادو بالرجل الذي يسـلم عنقه للجلاد بمثل هذه البساطة . ولهذا أعتقد ان مخاوفنا لا تقوم عـلى أساس .

واستدار آرثر الى سوزي وأمسك بيدها وقال في لهفة :

ـ سوزي ! انني اعرف انك ملاك في اهاب البشر ،ارجو الا تتخلي عني أو عن مرجريت في هذه المحنة . تعال معي الى لندن ، وعسى أن نجد معا وسيلة لانقاذها . انني اكاد افقد عقلي تدريجيا كلما فكرت فيما تعانيه هذه المسكينة بمفردها . يجب ان تبقي بجانبها وسوف اكلف بعض المحامين للبحث عن وسيلة قانونية يمكن بها انقاذها من براثن زوج وحشي الطباع .

فقالت سوزي وقد اضطرم وجهها بحمرة أضفت عليه جمالا مفاجئا :

ـ انني على استعداد للتضحية بحياتي من أجلك ومن اجل مرجريت كما تعرف .

وهنا قال الدكتور بورهيت :

ـ اذا كان الرأي قد استقر على عودتكما الى لندن ، فيجب ان أسافر معكما ، فأنا أيضا صديق لمرجريت .

الفصل الثالث عشر

الشبح المجسد

كانت موجة من الحر الشديد تجتاح انجلترا عندما وصل آرثر وسوزي والدكتور بورهيت الى بلدة فيننج ، وكان التعب والارهاق باديين عليهم حتى كادت أنفاسهم تختنق من فرط الجفاف والحرارة وازدحام القطار . وكان آرثر قد أبرق من لندن الى صاحبة الفندق الوحيد في البلدة لتحجز ثلاث غرف له ولمن معه . وما كاد يصل الى الفندق عند الغروب حتى تعرفت عليه صاحبته ، فرحبت به ، وأخذت كعادتها تثرثر بالحديث معه ، وكان هو أشد ما يكون لهفة ليسألها عن مرجريت . وأخيرا قال لها وهو يتكلف الهدوء والمرح :

ــ هه يا مسز سميتر ؟ ماذا حدث من مآس منذ رحيلي ؟

ــ أوه ! ألم تسمع يا سيدي بما حدث ؟

وارتعد آرثر وشحب وجهه ، ولكنه تمالك نفسه بسرعة ، ثم قال :

ــ لا ! هل شنق عمدتكم ، أوليفر هادو ، نفسه ؟

ــ أوه ، لا يا سيدي ، ولكن زوجته المسكينة ماتت .

ولم يجب عليها ، وانما تسمر في مكانه كتمثال من الحجر ، وشردت نظراته بحيث لم يعد يرى ما حوله . وأنقذت سوزي الموقف حين قالت بتكلف :

ــ يا للمسكينة ! هل ماتت فجأة ؟

واستدارت المرأة الى سوزي دون ان تلاحظ ما طرأ على آرثر فجأة ثم قالت :

ـ نعم . كانت وفاتها فجائية وقد تمت مراسيم دفنها هذا الصباح فقط .
ثم تابعت حديثها فقالت :
ـ يقال انها ماتت بهبوط مفاجىء في القلب . يا للمسكينة ، لقد أراحها الموت مما كانت فيه من عذاب .
وقالت سوزي وعيناها على آرثر خوفا عليه من الانهيار :
ـ أوه . هل يمكن ان تأتينا بابريق شاي يا مسز سميتر ، فاننا جد مرهقين بعد هذه الرحلة الطويلة في هذا الجو الحار ؟
ـ سآتي بالشاي فورا يا سيدتي !
وما أن انصرفت المسز سميتر حتى أغلقت سوزي الباب وراءها وأمسكت بذراع آرثر في لهفة واشفاق وهتفت :
ـ آرثر .. آرثر ، تمالك نفسك .
وكانت تتوقع أن ينهار فجأة ، ومن ثم نظرت الى الدكتور بورهيت ليعينها على مواساته ، ثم قالت في رجاء :
ـ لم يكن في مقدورك ان تفعل شيئا لو انك بقيت هنا بجانبها . ان مرجريت ماتت بهبوط مفاجىء في القلب كما سمعنا الآن ، أي ان شكوكنا لم يكن لها أساس .
ولما لم يجب آرثر بشيء ، عادت سوزي تقول ضارعة وقد افزعها صمته :
ـ تحدث الينا يا آرثر بحق السماء .
وقال الدكتور بورهيت :
ـ لا تحاول ان تقسو على نفسك هكذا يا صديقي . فليس في مقدور الانسان ان يتحكم في مصائر الغير .
وفجأة صاح آرثر بصوت أجش :
ـ أوه ، أرجو ان تدعاني وشأني .
وأقبلت المسز سميتر صاحبة الفندق ، تحمل صحفة بها أدوات الشاي

والحلوى ، وقبل ان تنصرف ، استوقفها آرثر قائلا :

ـ كيف عرفت أن مسز هادو ماتت بهبوط في القلب ؟!

ـ أخبرني بهذا الدكتور ريتشاردسن .

ـ أكان هو طبيبها المعالج ؟

ـ نعم يا سيدي ، لقد استدعاه المستر هادو لفحص السيدة المسكينة بضع مرات .

ـ وأين يقيم الدكتور ريتشاردسن ؟

ـ انه يقيم بالمنزل الابيض المجاور لمحطة السكة الحديدية .

ولما فرغ الجميع من تناول الشاي في صمت وحزن ، قال آرثر اخيرا:

ـ سوف أذهب لمقابلة هذا الدكتور ريتشاردسن . ان قلب مرجريت كان سليما مثل قلبي تماما .

ـ وماذا تنوي ان تفعل بعد ذلك ؟

ـ سأقدم عنق هادو الى الجلاد ، واذا لم يقف القانون بجانبي ، فسوف أقتله بيدي .

فوثب الدكتور بورهيت هاتفا :

ـ تمالك نفسك يا آرثر ! فكر في مستقبلك وفي حياتك الناجحة . أين هو الدليل الذي تثبت به أن هادو قتل زوجته حقا ؟

ورفع آرثر يده كأنما يدفع عنه صديقه بورهيت ، ثم قال بغضب عـــارم :

ـ دعني وشأني يا بورهيت . لقد مضى وقت البكاء والعويل ، انني لا أستطيع أن أبكي وفاة مرجريت الآن بعد كل ما تحملته من عذاب وشقاء . لقد ذوى قلبي وجفت الدموع من عيني . ولكنني اعرف أنها لم تمت ميتة طبيعية ، ولن أستريح في حياتي لحظة طالما ان هذا الوحش الآدمي على قيد الحياة .

ثم مد يديه ولوى اصابعه بعنف كأنما يضغط بها على عنق غريم خفي ،

وأردف قائلا :

ــ انني ذاهب الى ذلك الطبيب الاحمق .

وقالت سوزي :

ــ سأذهب معك .

ولما أعرب الدكتور بورهيت عن رغبته في الذهاب ايضا ، قال آرثر :

ــ حسنا . ليأت كل منكما اذا شاء ، ولكنني اقول بصراحة انني لن ألجأ الى العنف مع أوليفر حتى أستنفد جميع الوسائل القانونية .

وذهب الثلاثة الى عيادة الدكتور ريتشاردسن .

ولما كان هذا الطبيب الاقليمي يغار، كالمعتاد ، من الأطباء والاخصائيين مثل آرثر بردون وبورهيت ، فقد استقبلهما بجفاء ، وراح يتحدث معهما في تعال وترفع . ولما أعرب آرثر عن رغبته في استصدار تصريح باستخراج جثة مرجريت لتشريحها ومعرفة اسباب الوفاة الحقيقية انتهز الطبيب هذه الفرصة وصاح في غضب :

ــ كيف تجرؤ يا سيدي على التشكك في مقدرتي الطبية ؟ انني أنا الذي كتبت شهادة الوفاة ، ولست أقبل بأي حال من طبيب شاب قليل الخبرة أن يرتاب في مقدرتي ، بعد أن مارست المهنة اربعين عاما ! انني رئيس القومسيون الطبي هنا ، وسوف أعارض بكل قوتي هذه الرغبة الشاذة ! ان للموتى حرمتهم ، ولا يجوز لكل من هب ودب أن يطالب باستخراج الجثث لتشريحها ما لم يكن هناك سبب معقول .

وقبل أن يرد عليه آرثر ، فتح الدكتور ، ريتشاردسن باب الخروج وقال :

ــ ان وقتي ضيق يا سيدي ، وأعتقد انه ليس هناك ما نقوله بعد هذا .

وفي خارج العيادة ، تأبط الدكتور بورهيت ذراع آرثر ، وقال :

ــ يحسن ان تتصرف بحكمة يا صديقي . ان الحق كله في جانب الطبيب من هذه الناحية . وليس لديك أبدا ما يؤيد مطالبك ، وليس من المعقول

ان توافق السلطات المسؤولة على تشريح الجثة بناء على مجـرد الشكـوك والاوهـــام .

وقال آرثر وهو يستقل المركبة المأجورة مع سوزي وبورهيت :

ــ سأمضي الآن لمقابلة أوليفر هادو .

ــ لماذا ؟ ما جدوى هذه المقابلة ؟ انك لن تفوز منه بطائل مثل الدكتور ريتشاردسن .

ــ هذه هي رغبتي ، وليس هناك ما يرغم أحدكما على الذهاب معي .

ــ اذا كنت ذاهبا اليه ، فلا بد من ذهابنا معك .

ولما وصلوا الى بوابة الحديقة ، فتح الحارس جانبا منها بحذر ، وقال وهو ينظر اليهم بارتياب :

ــ ماذا تريدون ؟

ــ نريد مقابلة العمدة ، المستر هادو .

ــ انه في غرفاته الخاصة بأعلى القصر ، ولا يمكنكم مقابلته الآن .

وحاول الحارس أن يغلق البوابة ، ولكن آرثر وضع قدمه في اسفلها ودفع بالمصراع في عنف ، وقال وهو يدخل عنوة مع سوزي وبورهيت :

ــ لا بد لنا من مقابلة المستر هادو .

ــ اذا لم تخرجوا الآن ، فسوف أستدعي رجال البوليس .

وفي تلك اللحظة ، سمع الجميع صوت هادو وهو يقول بنبراته الساخرة :

ــ ماذا أستطيع ان أقدم لكم من خدمات ؟

عندئذ استدار الجميع بسرعة ليروا اوليفر هادو واقفا بجسمه الضخم، وبدانته التي ازدادت حتى اصبح رهيب المنظر ، وكان ينظر اليهم بعينين صغيرتين تكاد جفوتهما تنطبق من فرط الانتفاخ وكانت ثنيات الشحم تتدلى من أسفل ذقنه الغليظ بشكل يثير التقزز والنفور .

ووقف الجميع ينظرون اليه برهة في روع واستنكار وتقزز ، وأخيرا

تقدم نحوهم خطوة ، بعد أن أمر الحارس بالانصراف ، ثم عاد يقول :

ــ والآن يا اصدقائي ، ما سبب هذه الزيارة الغاضبة ؟

فقال آرثر :

ــ جئت لأتحدث بشأن وفاة مرجريت .

ولم يجب هادو فوراً* ، وانما راح ، كعادته ، يتنقل بنظراته الساخرة المتهكمة من وجه الى آخر ، ثم قال ببطء :

ــ اعتقد ان هذا ليس بالوقت المناسب الذي تنتهكون فيه حرمة الامي وأحزاني على وفاة زوجتي الحبيبة .

فقال آرثر غير عابىء بحديث هادو :

ــ لماذا لم تخبرني بأنها كانت مريضة ؟

ــ عجبا يا صديقي ! ما كنت أظن ان صحة زوجتي تهمك شخصيا !

وارتسمت ابتسامة خفيفة شيطانية على شفتي الرجل الغليظتين ، وفجأة صاح آرثر قائلا بعنف :

ــ انني أعتقد تماما انك قتلت مرجريت .

ولم يتأثر اوليفر هادو بما قاله آرثر ، ورد عليه ببرود :

ــ وهل بلغت السلطات المسؤولة عن شكوكك ؟

ــ سوف أفعل .

ــ على أي أساس ؟

ــ لقد رأيت مرجريت في هذه الحديقة منذ أسبوع ، وأخبرتني انها تعيش في رعب منك ، وانك تنوي قتلها .

ــ آه ، يا للمسكينة مرجريت ، لقد كانت دائما واسعة الخيال ، وأعتقد أن خيالها الواسع هو الذي جمع بيني وبينها .

ــ تبا لك من مجرم حقير !

ــ تمالك نفسك يا عزيزي ، ولا تنس ان معنا آنسة مهذبة لا يجوز أن تؤذي مسامعها بألفاظ بذيئة .

ثم التفت اليها قائلا : وأرجو ان تعذرني مس بويد اذا لم أستطع ان أرحب بكم في قصري بسبب حالة الحداد التي أعيش فيها الآن واذا لم يكن هناك ما أستطيع ان اقدمه اليكم في الوقــــت الحاضر ، فأرجو ان تنصرفوا بسلام حتى أعود الى تأملاتي وأبحاثي وأعتقد ان في مقــــدور حارس البوابة ان يخبركم بمكان مركز البوليس في المنطقة . طـــاب مساؤكـــــم .

وتنهد كل من الدكتور بورهيت وسوزي حـين رأيا اوليفر هادو يستدير وينصرف ثم لا يلبث ان يختفي بين الاشجار .

وقالت سوزي لآرثر في الطريق الى الفندق :

ــ ماذا تنوي أن تفعل الآن ؟

وبعد فترة غير وجيزة من الصمت ، قال ببطء :

ــ أرى انني لن أستطيع القيام بشيء بالوسائل العادية ، ولهذا لم يبق أمامي غير وسيلة واحدة للتأكد من أن مرجريت ماتت مقتولة .

ــ ما هي ؟

ــ سأخبركما بها فيما بعد !

وعند باب الفندق ، قال آرثر :

ــ أرجو أن تنتظراني حتى أعود ، لاني في حاجة الى السير بمفردي في هدوء الليل نحو ساعة .

ووجدت سوزي طعام العشاء في انتظارهم بغرفة الجلوس ، فقررت هي والدكتور بورهيت انه لا فائدة من انتظار آرثر ليشترك معهما في تناوله ، فأكلا قليلا منه ، ثم جلسا في صمت .

وأخذت الدموع تنساب من عيني سوزي رغما عنها ، وهي تفكر في مرجريت البائسة وفي نهايتها الرهيبة . لقد أدركت ان المسكينة كانت ضحية لقدر مكتوب ، وانه لم يكن في وسعها ان تفعل شيئا لتنجو من هـــذا المصـــير .

وبعد اكثر من ساعتين ، عاد آرثر ، وتهالك على اقرب مقعد ، وظل ينظر الى الدكتور بورهيت في صمت فترة طويلة ، وأخيرا زال الصمت حينما ابتدره الدكتور بورهيت قائلا :

ــ هه . ماذا قررت يا صديقي ؟

ــ أتذكر يا دكتور بورهيت انك قصصت علينا حكاية الغلام في الاسكندرية حيث استخدمته للقيام بتجربة لمعرفة الغيب عن طريق النظر في قاع فنجان به مداد اسود ؟!

ــ نعم ، وقد نجحت التجربة واستطاع ان يذكر احداثا وقعت لم نكن نعرف عنها شيئا لقد كنت انت الصبي ، وأجريت التجربة عليك .

ــ انني أذكر في الايام الاخيرة هذه التجربة ، واذكر معها انني كنت أثناء القيام بها أجد نفسي مرغما على النطق بعبارات معينة ، وكأنما ثمة قوى خفية كانت ترغمني على النطق بها . ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر ان في اعماق نفسي جانبا خفيا طالما ازعجني وافزعني ، وطالما حاولت الكفاح للتخلص منه . ولعل مولدي في تلك البلاد الشرقية حيث يؤمن الناس بقوى ما وراء الطبيعة كان له اكبر الاثر في وجود هذا الجانب الخفي من نفسي . انني في بعض الاحيان أشعر كأن نافذة ما تفتح في هذا الجانب من نفسي ، فأرى اشياء عجيبة ، وأحداثا غريبة ، ثم تغلق النافذة ، وأتنهد في ارتياح .

فابتسم الدكتور بورهيت وقال :

ــ هذه خصائص الوسيط الروحي الممتاز .

وعندئذ قال آرثر وهو ينهض منفعلا :

ــ ولهذا السبب يجب ان ارى مرجريت مرة اخرى .

وصاحت سوزي في هلع :

ــ آرثر ! هل فقدت عقلك ؟!

وتقدم آرثر نحو الدكتور بورهيت وأمسك بكتفيه وقال بحرارة :

ـ انك تعرف كل ما ينبغي اتخاذه من اجراءات في هذا السبيل ويجب أن تتيح لي فرصة رؤيتها .

فقال الدكتور في جزع :

ـ انني أعرف هذا نظريا فقط ، ولكنني لم أقم بمثل هذه التجربة من قبـــل .

ـ هل تؤمن بأن في مقدورك القيام بها بنجاح ؟

ـ انني لا أفهم ماذا تريد منها ؟

ـ أريد ان تعود الي لحظة لاتحدث معها واعرف منها الحقيقة .

ـ عجبا ، وهل تراني الها في مقدوره احياء الموتى ؟!

وغرس آرثر أصابعه في كتفي الدكتور بورهيـــت الذي حاول أن ينهض ، ثم قال :

ـ لقد قلت لي في معرض الحديث ذات مرة ان أحد العلماء القدامى ويدعى اليفـاس ليفي استطاع تجسيد روح ميت توفى حـديثا . فهـل تؤمن بهذا ؟

ـ انني لا أدري ! انني دائما أنظر الى هذه الشؤون من زوايا مختلفة وبتفكير متسع الافق .

ـ اذن يجب عليك الآن ان تؤمن بامكان نجاح هذه التجربة وأن تقوم بها .

ـ لا شك انك مجنون ياارثر اريد انتأتي معي الى تلك الساحة بـــين الاشجار التي قابلتها فيها منذ اسبوع ، والتي تعودت ان تنفرد فيها بنفسها وتبكي ، ولا شك ان هذا سيسهل عليك مهمة استحضار روحها في هـــذا المكـــان .

ـ لا لا .. لا أستطيع .

ـ اذن اخبرني بالطريقة ، أو أعطني الكتب اللازمة لقراءتها ، وسوف أذهب بمفردي وأجسد روحها .

ـ ان الكتب في باريس .

ـ اذن يجب ان تساعدني ، أرجوك بحق السماء ، انني لن اعرف معنى السعادة في الحياة ما لم تطمئن نفسي من هذه الناحية .

وهز الدكتور بورهيت كتفيه اخيرا ، ثم قال :

ـ هذا جنون ! ولكن من يدري ، لعل كل ما قرأته في هذا الشأن لا يعدو أن يكون خداعا وكذبا . ومن ثم فلا ضرر من القيام بالتجربة .

فصاح آرثر منفعلا :

ـ اذن فسوف تساعدني ؟

ـ اذا كان مجرد القيام بهذه التجربة سيهدىء من ثائرتك ويخفف من لوعتك ، فاني على استعداد للقيام بها . ولكن يجب أن تعد نفسك لمواجهة جميع الاحتمالات .

*

وأراد آرثر ان يجري الدكتور بورهيت تجربته فورا ، ولكن هذا أخبره ان الوقت متأخر ، وانهم جميعا مرهقون ، وان عليهم ، لنجاح التجربة ، أن يصوموا عن الطعام يوما كاملا قبل اجرائها ، وهكذا تقرر القيام بها في منتصف الليلة التالية .

ومضى نهار اليوم التالي حارا طويلا بطيئا ، وكانت السماء فيه صافية متألقة ذكرت الطبيب الفرنسي بسماء مصر في الصيف . وكان القلق قد استبد بآرثر بحيث لم يكن يستطيع البقاء داخل الفندق ، فخرج يتمشى بعيدا غير حافل بأشعة الشمس الحامية وهي تنسكب على رأسه ، ولا بحرارة الجو وهي تكاد تصهر جسمه وانصرمت الساعات اشد ما تكون بطئا ، وبقيت سوزي في فراشها تحاول ان تقرأ ، ولكن اعصابها كانت متوترة بحيث كادت تصرخ في فزع حينما سقط اناء في فناء الفندق وأحدث دويا مفاجئا ، وارتفعت الشمس الى سمت الظهيرة ، ولم تلبث ان نفذت أشعتها الذهبية المتوهجة من نافذة غرفتها ، فأحست سوزي كأنها تسبح في أمواج من الضوء الباهر الذي تطرف منه العيون . وأقبل المساء ،

ولكنه لم يأت بنسماته من الهواء المنعش ، وفي خلال هذا كان الدكتور بورهيت جالسا في صمت ، واضعا رأسه بين يديه ، باذلا جهده العقلي ليذكر كل صغيرة وكبيرة مما قرأ عن تجسيد الارواح . وأخيرا اسدل الليل ستاره ، وبدأت النجوم في صفحة السماء تتلألأ الواحدة بعد الاخرى ، وتبادل الاثنان حديثا هامسا خشية ان يسمعهما احد ، وزاد احساسهما بالجوع حتى أوشكت سوزي على الاغماء ، ومرت ساعات اخرى ، وبدأت اضواء البلدة تنطفىء تدريجيا وخيم الصمت على كل شيء بعد ان أوى السكان الى مضاجعهم ، وأوقدت سوزي مصباحا صغيرا ثم قالت وهي ترتعد :

ــ أحس كأن معنا في هذه الغرفة جثة ميت .

ــ ترى لماذا لم يعد آرثر ؟

ونظرت سوزي من النافذة ، وحاولت ان تتذكر شوارع باريس في تلك الساعة وهي تضج بالحياة والحركة . وعادت تقول :

ــ ليس في الجو نسمة هواء ، ان اوراق الشجر لا تتحرك !؟

ــ ترى لماذا لم يحضر آرثر ؟

ــ ان القمر لن يبزغ الليلة ، ولهذا سيكون الظلام كثيفا في حديقة قصر أوليفر .

ــ ان آرثر سار طيلة اليوم على قدميه ، كان ينبغي ان يكون معنا الآن .

وأحست سوزي بانقباض شديد ، ولهثت انفاسها التماسا لنسمات من الهواء البارد ، وأخيرا سمعت وقع أقدام في الخارج ، ثم اذا آرثر يبدو في هذه النافذة ويقول

ــ هل أنتما على استعداد للذهاب ؟

ــ كنا في انتظارك .

وانضما اليه بعد أن احضر الدكتور بورهيت ما يلزمه للتجربة الروحية، وساروا في الطريق الموحش المهجور المؤدي الى قصر أوليفر وبعد مسافة

ميلين ، تهالكت سوزي على أقرب صخرة اليها بجانب الطريق ، وقالت :

ـ انني أكاد اموت من فرط التعب . سأستريح برهة .

ووقف الرجلان في هدوء ينتظرانها حتى تسترد انفاسها ، وبعد لحظات نهضت قائلة في عزم :

ـ الآن أستطيع مواصلة السير .

واستأنفوا السير في صمت حتى وصلوا الى مكان معين من سياج الحديقة ، وظل آرثر يتحسس قضبان السياج حتى عثر على الفجوة التي يمكن أن ينفذوا منها الى داخل الحديقة ، ثم همس لهما قائلا :

ـ اتبعاني في سكون لقد جئت الى هذا المكان في ساعة مبكرة من هذه الليلة وزادت الفجوة اتساعا حتى يسهل علينا الدخول .

وقالت سوزي :

ـ انني لا أرى شيئا من فرط الظلام .

ـ هات يدك وسوف أرشدك .

وساروا بخطوات متعثرة بين الاشجار المتقاربة وفوق الاعشاب الجافة، وبدا لسوزي انهم ساروا مسافة طويلة ، واخيرا توقف آرثر وأشار من فجوة بين الاشجار الى القصر حيث كانت غرفه العليا القريبة من السطح مضاءة :

ـ هذه هي الغرف التي كانت في الاصل مخازن ، وقد استعملها المجرم معامل لاجراء ابحاثه وتجاربه . وهو مشغول بأعماله الآن ، ولا يوجد في القصر أحد غيره .

وتخيلت سوزي ذلك الرجل اوليفر هادو وهو منكب على ابحاثه وتجاربه الشيطانية ليلة بعد ليلة ، في ذلك الضوء الساطع العجيب المنبعث من النوافذ ، وفي ذلك القصر الكبير الذي لا يقيم فيه أحد غيره ! ترى اي نوع من التجارب يقوم بها هذا المجنون ؟!

وعاد آرثر يقول هامسا :

ـ لا خطر علينا من مفاجأته لنا ، انه لا يغادر تلك الغرف الا في مطلع الفجـــر .

وتناول يد سوزي مرة اخرى ، ومضى بها ، والدكتور بورهيت بجانبه ، الى ساحة من الارض خالية من الاشجار ، في وسطها مقعد حجري أبيض ، وعلى جانبه جدول من الماء الساري .

وقال آرثر وهو يشير الى المقعد :

ـ قد وصلنا اخيرا . ها هنا كانت تجلس مرجريت تندب حظها العاثـر وتبكي شبابها الغض .

وكان الدكتور بورهيت قد أحضر معه وعاءين كبيرين من النحاس لاستعمالهما مبخرتين لحرق البخور . ووقف آرثر بجانب سوزي بينما أخذ الدكتور بورهيت يقوم بالاعمال التمهيدية للتجربة . فرأياه يـروح ويغدو ، وينحني على الارض ، ثم يشعل بعض الاعشاب في المبخرتين ، واذا ألسنة رفيعة من النار تندلع ، واذا دخان كثيف يتصاعد حاملا الى الجو رائحة نفاذة طيبة ولكنها تدير الرأس .

وظل الدكتور في هذه الاعمال التمهيدية وهو لا يكف عن التمتمة بعبارات غامضة وبلغة غريبة خيل الى آرثر انها اللغة العربية ، وأخـــيرا أخمدت ألسنة النيران ، ولم يبق غير جمرات متوهجة في الظلام الدامس . ومرة اخرى وضع الدكتور بورهيت أعشابا جافة ، فاندلعت ألسنة جديدة من النيران كأنها شفرات حمراء تقطع كتل الظلام .

وفجأة قال لسوزي :

ـ تعالي الآن .

وأحست سوزي بالفزع حتى أحست أن شعر رأسها ينتصب واقفا ، وان العرق البارد يتصبب على جبينها ، وأطرافها توشك ان تخذلها حتى تكاد تسقط على الارض متهالكة . لقد استبد بها رعب رهيب أرادت بسببه أن تفر هاربة لولا أن قدميها لم تسعفاها وحاولت ان تقول شيئا ، ولكن

لسانها بدا ثقيلا ملتصقا في سقف فمها ، واخيرا استطاعت ان تقول بصوت مرتعد خافت :

ـ لا .. لا . انني خائفة .

فقال لها آرثر :

ـ يجب أن تساعدي الدكتور بورهيت يا سوزي ، فانه بدونـــك لا يستطيع ان يفعل شيئا .

ولكن خوف سوزي غلب كل شيء ، فتمتمت وهي تحاول ان تتراجع وقلبها يخفق كالمطرقة في صدرها :

ـ لا لا . أرجوك . انني أوشك ان أفقد صوابي من فرط الخوف

وتناول آرثر يدها وراح يقودها نحو الدكتور بورهيت ، ولكنهـا هتفت بعصبية واضحة :

ـ لا ، دعني أنصرف . انني خائفة .

ـ بل يجب ، يجب أن تساعديني .

ـ لا .

ـ قلت لك يجب ان تساعديني .

ـ لماذا ؟!

وكان خوفها الشديد قد جعلها تنطق هذه العبارة بغضب مفاجيء ، أما آرثر فقد أجاب عليها قائلا :

ـ لانك تحبينني ، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن ان تريحي بها قلبي ونفسي مدى الحياة .

وتحول فزعها الى خجل شديد حتى أدركـــت انه يعرف سرها واضطرم وجهها بحمرة قانية ، وعاودها الغضب لانه يستغل حبها الكبـير لاغراضه الشخصية ، ثم تحول هذا الغضب الى شجاعة وعناد ، فتقدمت بخطوات ثابتة نحو الدكتور بورهيت الذي جعلها تقف في وسط دائرة رسمها بالقرب من المقعد الحجري ، ثم جعل آرثر يقف مواجها لها ، وعندئذ

قال محـــذرا :

ـ يجب ألا تتحركي من مكانك حتى أمنحك الاذن بذلك . فاذا خرجت عن حدود هذه الدائرة ، فلن أستطيع حمايتك .

ووقف الدكتور بورهيت بعد ذلك برهة في صمت تام ، ثم بدأ يغمغم بعبارات غريبة ، وبصوت خاشع مرتعد شديد التأثير في النفس ، وكـان آرثر واقفا ساكنا كتمثال من الحجر . وصمت الدكتور بورهيت برهة ، ثم عاد يغمغم بعبارات اخرى ولكن بصوت اكثر ارتفاعا وأشد حزما . وفجأة انطفأت النيران في المبخرتين بطريقة تنم على أن أيد خفية اطفأتها بهـــذه السرعة ، وازدادت الظلمة كثافة حتى أمسى كل واحد منهم كأنه يقــف بمفرده ، فهو لا يرى كف يده لو رفعها الى عينيه .

وظل صوت الدكتور بورهيت يخترق السكون الرهيب بنبراتــــه المؤثرة ، وكأنه آت من مكان بعيد ، وبذلت سوزي جهدا عنيفا حتى لا تستسلم للاغماء .

وعلى حين فجأة هبت الرياح ، وتحول السكون المخيم الى عاصفــة ثائرة هوجاء تكاد تقتلع الاشجار من جذورها ، وبدا لسوزي أنهم امسوا في قلب اعصار عنيف مدمر تهتز له الارض ، وتنخلع من هوله القلوب ، ومع ذلك فقد بقي ثلاثتهم في أماكنهم ، لا تصل اليهم هبة ريح واحدة .

ومرة اخرى رفع الدكتور بورهيت صوته عاليا ، وكانت نبراتـــه في هذه المرة زاخرة بالقوة والحزم وباللهجة الآمرة المسيطرة ، وراح ينادي مرجريت ثلاث مرات ، وكادت سوزي تفقد صوابها من فرط الفزع ، ذلك ان صوت الدكتور بورهيت كان يبدو بسبب زئير العاصفة ، كأنه آت من عالم آخر .

وسمعته يهتف مرة اخرى :

ـ مرجريت .. مرجريت .. مرجريت .

وفجأة سكنت العاصفة بلا تمهيد او تدريج ، فبعد الزئير العاصف

المدوي ساد السكون العجيب الذي يشبه سكون الموت بعد الحياة .

وعندئذ سمعوا بوضوح عجيب صوت امرأة تبكي . وكاد قلب سوزي يقف في صدرها . فقد عرفوا صوت هذه المرأة التي تبكي .. انها مرجريت . وندت من فم آرثر آهة الم وتوجع ، وبدا كأنه يهم بالاندفاع الى الامام ، ولكن الدكتور بورهيت أسرع ووضع يده على كتفه ليمنعه . وكان صوت المرأة الباكية يمزق نياط القلب . كان بكاء امرأة فقدت كل أمل، وكل سعادة ، وكل احساس بالراحة والامن ، ولو كان في مقدور سوزي أن تتحرك ، لوضعت أصابعها في أذنيها حتى تجنب نفسها آلام الحزن المميت .

ورغم الظلام المخيم الكاسي ، رآها آرثر ، رأى مرجريت جالسة على المقعد الحجري القريب منه ، كما سبق ان شاهدها آخر مرة ، ولكنها في هذه المرة لم تحاول ، من فرط آلامها ، أن تخفي وجهها ، وانما أطرقت برأسها وتركت دموعها تتساقط على وجنتيها ، بينما كان صدرها يضطرب بعنف البكاء .

وفي تلك اللحظة عرف آرثر انه على حق في كل ما يخامره من شك وريبة .

الفصل الرابع عشر

المعركة الفاصلة

وعندما قرر آرثر عدم الرحيل عن بلدة فيننج ، رأى الدكتور بورهيت وسوزي أن الواجب يحتم عليهما البقاء بجانبه . ولم يحاول احدهم ان يتحدث عن تلك الليلة الرهيبة التي شاهدوا فيها عملية تجسيد روح مرجريت في حديقة قصر أوليفر ، ولكن هذه التجربة كانت رغم هذا تلون أفكارهم، وتسيطر على مشاعرهم ، وتجعلهم عاجزين تماما عن التحرر من ذكراها ولو لمدة لحظة واحدة . فقد بدا لهم أنهم يسمعون دائما نحيب مرجريت الحار ، ويرون دموعها المتساقطة على وجنتيها . وكان آرثر شديد الاكتئاب دائما قليل الكلام عنيدا في رفض كل محاولة لتحويل افكاره عن هذه المأساة ، وكان يقضي ساعات طوالا منفردا بنفسه في المزارع والبراري المحيطـة بالبلدة ، وشعرت سوزي بالخوف وهي تراه يفقد اتزانه تدريجيا ويغـدو مستعدا لارتكاب أي عمل طائش . لقد بدا لها ان كراهيته العميقة لهادو قد تجاوزت كل حدود التعقل والحكمة ، وأفعمت نفسه بالرغبة العارمـة للانتقـام .

ومضت ايام وأيام .

وأخيرا قررت سوزي ، بالاتفاق مع الدكتور بورهيت ، أن تفاتح آرثر في موضوع بقائه بهذه البلدة ، وماذا يهدف اليه . وفي ساعة متأخرة من ذات ليلة ، كان ثلاثتهم جالسين في غرفة الاستقبال بالفندق ، ولم يكن بها أحد غيرهم ، وكانت النافذة مفتوحة ، ولكن الهواء كان ساكنا تماما وفي الجو ما ينم عن اقتراب عاصفة عاتية .

وقالت سوزي :

ــ آرثر ! يجب ان تخبرنا ماذا تنوي ان تفعل ، ان بقاءنا لا جدوى منه ، وان اضطراب اعصابنا لا يتيح لنا التصرف بحكمة واتزان ، ولهذا نريد منك أن ترحل معنا عن هذه البلدة غدا .

ــ يمكن لكل منكما ان يرحل اذا شاء ، أما أنا ، فسوف أبقى حتى أشهد موت أوليفر هادو .

ــ من الخبل ان تتحدث هكذا . فليس في مقدورك ان تفعل شيئا ، بل ان بقاءك هنا يزيد حالتك سوءا .

ــ لقد استقر رأيي على هذا .

ــ ان القانون لن يساعدك ، فماذا يمكنك أن تفعل ؟

وكانت تهدف من سؤالها هذا ان تعرف حقيقة نواياه ، ورغم توقعها لاجابته ، فقد جفلت حين سمعت ما في نبرات صوته من حزم وعناد واصرار :

ــ في هذه الحالة سوف أقتله بالرصاص .

وقبل ان تجيب سوزي بشيء ، نهض واقفا وأردف قائلا :

ــ أعتقد ان من الافضل لي رحيلكما ، لانكما ستعترضان طريقي لتحقيق هذا الأمل .

فقالت سوزي بنفس الاصرار والعناد :

ــ انني سأبقى هنا بجانبك ، شئت أو لم تشأ .

ــ لمــــاذا ؟

ــ لانك اذا فعلت شيئا من هذا القبيل ، سوف تعتبرني السلطــــات المسؤولة شريكة لك ، ولعل خوفك من القائي في السجن يمنعك من تنفيذ غرضــــك .

فنظر اليها طويلا بثبات ، وبادلته هي النظر بهدوء الانسان الــذي بنوي أن يفعل ما يقول تماما . واستدار عنها بقلق ، وخيم الصمت العميق على الغرفة ، ولم يتحرك أحد من مكانه ، وازداد السكون عمقا ، حتى كأنما

لا يوجد في الغرفة أحد ، وفجأة رعدت السماء بدوي هائل ، واندفعت الرياح وهي تعول بين الشجر بصوت كأنه عويل آدمي رهيب . وانطفأ المصباح ، واستبد الخوف بقلب سوزي وخامرها احساس رهيب بأن شخصا ما في الغرفة، وازداد هذا الشعور قوة حين سمعت الدكتور بورهيت يعرب عن دهشته لانه لم يجد علبة الثقاب في موضعها على المنضدة ، وفجأة هتفت قائلة وهي تثب واقفة :

— ان بالغرفة شخصا غريبا .

وما كادت الكلمات تند عن شفتيها حتى سمعت آرثر يلقي بنفسه على المتسلل الى الغرفة . وأدركت فورا ، بغريزتها ، أنه أوليفر هادو ولكنها تساءلت في نفسها : كيف دخل الغرفة ؟ وماذا يبغي ؟ وحاولت ان تصيح فلم تستطع ، أما الدكتور بورهيت فقد بدا متسمرا في مقعده ، لا يتحول ، ولا ينطق بلفظ . وادركت سوزي ان معركة ما رهيبة تدور في الغرفة الواسعة ، معركة موت أو حياة بين اثنين يكره احدهما الآخر كراهية تفوق الوصف . ولكن أفظع ما في الامر ان المعركة كانت تدور في سكون تام ، وحاولت هي أن تفعل شيئا ، ولكنها لم تستطع ، أما آرثر ، فقد امتلأ قلبه بالبهجة والنشوة ، لان عدوه اللدود وقع اخيرا في قبضته . ومن ثم قرر ألا يدع هذه الفرصة تفلت منه . وضغط على أسنانه ، وشد من عضلاته وسمعت سوزي الانفاس اللاهثة ، أنفاس رجل واحد فقط ، ومن ثم تساءلت في رعب عن معنى هذا ! وظلت المعركة دائرة في صمت يدا بيد ، وكان آرثر يعرف انه اقوى كثيرا من غريمه ، لانه أوجد كل نفسه ، وكل ارادته ، وكل طاقته وركزها في هذه المعركة الفاصلة . ورغم انه وجد غريمه هائل القوة ، الا انه كان يعرف ان قوته المستمدة من صلب ارادته سوف تتيح له النصر في النهاية . وبدا له ان المعركة استمرت ساعات طوالا دون أن يتمكن من طرح غريمه ارضا والقضاء عليه .

وفجأة عرف ان الآخر قد استبد به الخوف وغدا همه ان يفر منه

ولكن آرثر شدد قبضته عليه حتى لم تعد قوة في الارض تستطيع ان تنتزع غريمه منه ، ثم تنفس بعمق ، وركز جميع قواه في مجهـود هائل اخير . واستطاع ان يسقط عدوه على الارض وأن يجثم فوقه . وأحس في تلك اللحظات الاخيرة ان عضلاته توشك ان تتمزق من فرط الجهد ، وانه لن يستطيع ان يستمر دقيقة اخرى في المعركة اذا لم ينته منها بسرعة . وفوجىء بأوليفر يتغلب عليه ، ويغدو فوقه ، ولكن منظر مرجريت الباكية ومض في ذهنه ، وملأ نفسه بثورة غضب رهيبة ، فاذا به ينتزع نفسه من تحـت الوحش الادمي ثم يحط عليه ، ويمسك بذراعه اليمنى ويلويها حتى احس بتكسر عظام المرفق وتمزق أربطة المفصل . وهنا زاد فزع غريمه وقرر ان يفر من هذه الاصابع المعقوفة التي توشك ان تنطبق على عنقه ، ولكن آرثر كان أسرع منه ، فاستطاع ان يطبق بأصابعه على عنق أوليفر ، وأن يغوص بها بين طيات الشحم المتراكم حولها وأن يضغط بكل ما تبقى له من قوة وصلابة وعزيمة ، وكلما تذكر آلام مرجريت وعذابها ، ازداد ضغطا ووحشية وعنفا ، وأخيرا شعر بسكون جسم غريمه ، ولم يبق الا اختلاجات بسيطة ، همدت بعدها حركته تماما .

ورفع يديه عن عنقه ، وجس نبض القلب ، فلما أيقن انه لن يخفق بالشر مرة اخرى ، نهض واقفا ، وتلفت حوله في الظلام الدامس فلـم يستطع ان يرى شيئا ، ولكن سوزي سمعته يقول :

ــ ألا يضيء أحد مصباحا ؟

وأخيرا استطاعت ان تحرك لسانها فقالت :

ـ آرثر ! ماذا فعلت ؟

قتلته .

يا للهول ؟ ماذا نفعل الآن ؟!

واخذ ارثر يرسل ضحكات هستيرية عالية ، وكان رنين البهجة فيهـا مذ . وهتفت سوزي قائلة :

ـ اشعل يادكتور بورهيت مصباحا بحق السماء .

وقال بورهيت وقد بدا انه يفيق فجأة من غيبوبة عميقة :

ـ انني لا اعرف اين ذهبت علبة الثقاب .

واستطاعت سوزي ان تجد علبة ثقاب اخرى كانت تعرف موضعهـ وتمكنت من اضاءة المصباح الموضوع على المائدة ، ونظرت مع الدكتـــور بورهيت في هلع الى ارثر الذي كان وجهه مربدا والعرق ينثال غزيرا عـــلى وجهه ، والدماء تطل من عينيـــه ، وفجأة صـــاحت سوزي وهي تتلفت في جوانب الغرفة :

ـ اين القتيل ؟ انني لا ارى شيئا .

وجفل ارثر في فزع ، وهو يرى الغرفة خالية تماما الا منهم ، ودارت الارض بسوزي ، وسقطت مغشيا عليها ، فلما فاقت احست انها تخرج من أعماق ظلمات لا نهائية ، ووجدت آرثر ممسكا برأسها في عطف ويقول لها:

ـ انحني الى الامام ، انحني الى الامام .

وتذكرت كل ما حدث لها ، وانفجرت باكية ، وتعلقت به تلتمس حمايته وظلت تبكي حتى احسست ان نياط قلبها سيتمزق ، وانها توشك ان تفقـــد صوابها فزعا لغرابة ما حدث . وقال لها آرثر :

ـ تمالكي نفسك يا سوزي . لا داعي للخوف .

ـ أوه ! ولكن ما معنى ما حدث ؟!

ـ يجب ان تستردي شجاعتك لاننا سنذهب فورا الى قصر اوليفر هادو.

فوثبت واقفة ، وانتزعت نفسها منه ، وصاحت بعنف :

ـ لا ، لا استطيع ، انني خائفة .

ـ يجب ان نعرف تفسيرا لما حدث . وليس لدينا وقت نضيعه والا فاجأنا الصباح قبل ان نعود .

وهنا حاولت ان تمنعه بقولها :

ـ أوه ، ارجوك الا تذهب ياارثر ، ان انتظاري لك هنا سيكون قاسيـــا

محطما لاعصابي ،ارجوك الا تغامر بحياتك .
ــ اؤكد لك انه لا خطر علينا ، فان اوليفر قد مات فعلا .
ــ لو ان شيئا ما حدث لك .. !
وتوقفت عن اتمام عبارتها ، وحاولت ان تكف عن البكاء ، ولكنه ادرك ما يجول بذهنها . ومن ثم قال :
ــ انني لن اغامر بحياتي من اجلك ، لاني اعرف ان حياتي تهمك كثيرا.
ورفعت انظارها اليه بسرعة ، فرأته ينظر اليها بهدوء ووقار ، واحمر وجهها وخفق قلبها بعد ان تسلل اليه احساس عجيب . وقالت في خشوع :
ــ لسوف أذهب معك الى حيث تريد .

وخرج الاصدقاء الثلاثة الى قلب الليل ، وكانت العاصفة برياحها وامطارها ورعودها قد انتهت ،فبدا الجو ساكنا ، والسماء صافية تتألق فيها النجوم ، وظلوا في سراهم حتى دخلوا حديقة القصر ، ثم وقفوا بالقرب من مدخله ينظرون الى نوافذ غرفة العليا وهي لا تزال مضاءة .
وجفلت سوزي وهي ترى الضوء المنبعث من تلك النوافذ ، ولكن ارثر قال لها :
ــأوكد لك انه لاخطر علينا . اننا سنصعد لنعرف معنى هذا كله .
ولما تقدم الى باب القصر ، قال له الدكتور بورهيت :
ــ الديك سلاح من اي نوع ؟
فناوله ارثر مسدسا ، وقال له :
ــ احمل هذا حتى تستمد منه الشعور بالامن .
ولما وجدوا باب القصر مغلقا من الداخل ، قرر ارثر ان يقتحم احدى نوافذ الطابق الارضي ، ثم يدور ويفتحه لصاحبيه .
واستطاع ارثر بجهد يسير ان يعثر على نافذة مخلخلة المصراع فاقتحمها وفتح الباب الرئيسي من الداخل ، ولكن سوزي ترددت برهة في فزع مما ينتظرها داخل القصر ، وكان الظلام حالكا بحيث جعلها تقول :

ـ انني لا ارى شيئا .

وقال ارثر :

ـ لقد احضرت معي مشعلا كهربائيا صغيرا .

ولما اضاء المشعل ، دخلت سوزي والدكتور بورهيت ، ثم اغلق ارثر الباب في عناية وحذر ، ووقف الجميع في بهو واسع ارضيته مفروشة بفراء الاسود .

وقال آرثر :

ـ يجب ان نصعد فورا الى الغرف العليا التي يجري فيها ذلك اللعين تجاربه .

وقبل ان يصعدوا لاحظ ارثر على الجدران وجود مجموعات من الاسلحة المختلفة ، فتناول «بلطة» حرب من النوع الشائع بين قبائل افريقيا، وتقدم صاحبيه الى الطابق الاول وهناك وجدوا الغرف كلها تنم على انها غير مستعملة ، اذ كانت جميع الاثاثات مغطاة بمفارش وملاءات تحفظهامن الغبار .

وكانت جميع الغرف مكسوة من الداخل بألواح من خشب البلوط المصقول ، وقد لمس آرثر بعض هذه الالواح وهو يصعد الى الطابق الثاني ثم قال :

ـ انها قديمة وجافة ، لشد ما تصلح ان تكون وقودا يزيد النار اشتعالا .

ولما وصلوا الى الطابق الثالث ، رأوا فيه الغرفة التي كانت مخصصة لنوم مرجريت ، وكانت بسيطة الاثاث ، وقد شحب وجه ارثر عندما رأى ثوبا لمرجريت لا يزال معلقا على المشجب . وبعد ان جاسوا خلال غرف هذا الطابق الثالث ، لم يعثروا على السلم المفضي الى الغرف العليا . لكن ارثر استطاع ، بعد البحث المضني ، ان يهتدي الى باب صغير في احدى الغرف القريبة من دورة المياه ولما دفعه بيده ، انفتح فورا ، وكشف عن سلم من الخشب ضيق الجنبات ، فصعدوا عليه حتى وصلوا الى باب تبين لهم انه

مغلق فابتسم ارثر ، وطلب من صاحبيه ان يتراجعا قليلا ، ثم اهوى بالبلطة على قفل الباب فحطمه ، وعندما انفتح دخل الجميع الى ردهة صغيرة يخيم عليها سكون رهيب . ولكن سوزي لم تلبث ان سمعت الصوت ، وبعد برهة من السكون العميق ، سمع الجميع صوتا عجيبا غريبا ، انه لم يكن صوتا ادميا ، وانما صوت قريب من دمدمة حيوان ، وامتلات نفوسهم بالفزع لغرابة الصوت وشذوذ وقع نبراته على الاذن البشرية . ومن ثم هتفت سوزي هامسة :

ـ هلم نتراجع . ارجوك .

ـ ان في هذا المكان مخلوقا حيا .

ولم يعرف ارثر لماذا اثار هذا الصوت الفزع في قلبه ، وجعل العرق يتفصد غزيرا على جبينه . وعادت سوزي تهمس قائلة :

ـ لسوف نتعرض لا حداث رهيبة هنا .

وكانت اجابة ارثر على هذا ان تقدم نحو الباب الصغير المفضي من الردهة الى الغرف ، وما كاد يفتحه ، حتى تراجعوا جميعا امام موجة من الحرارة هبت فجأة من داخل الغرف ، حتى لقد شعروا كانهم امام مدخل فرن . ولم يستطيعوا ان يفهموا سر هذه الحرارة الشديدة وكان ثمة مقياس للحرارة الجوية معلقا على الجدران ، وقد دهش الدكتور بورهيت للرقم الذي سجله المقياس في تلك اللحظة ، ولاحظ الجميع ان المصاريع الزجاجيه للنوافذ مغلقة ، وكان كل شيء في الغرفة يدل على انها كانت تستعمل كمعمل لاجراء التجارب ، فقد احتوت على مناضد مختلفة الاحجام ، ومقاييس وموازين وأنابيب اختبار واحواض واجهزة وادوات بعضها معروف، وبعضها لم يسبق لآرثر او الدكتور بورهيت ان رأيا مثيلا لها .

ووقف الثلاثة في صمت ودهشة برهة ، واخيرا وقعت إنظار ارثر على اناء زجاجي ضخم مغطى بملاءة بيضاء وموضوع بالقرب من جهاز توليد الحرارة فمضى اليه ، ورفع الغطاء ، فرأى الوعاء عبارة عن حوض من

الزجاج ارتفاعه نحو اربع اقدام ، وسمكه اكثر من بوصة . وكانت بداخله كتلة كروية الشكل في حجم كرة القدم تقريبا او اكبر قليلا ، لونها غريب يميل الى الحمرة الشديدة وسطحها املس ، يتخللها جهاز كثيف من الاوعية الدموية المتشابكة وقد ذكر هذا المنظر الطبيبين بالورم المستخرج من جسم مريض والمحفوظ في مادة كحولية بمتحف الطب .

ونظرت سوزي في تقزز شديد الى تلك الكتلة ثم هتفت بفزع :

ــ يا الهي ، انها تتحرك .

وأسرع ارثر فوضع يده على ذراعها ليهدىء من روعها ، ثم راح مع الدكتور بورهيت يفحص تلك الكتلة بنظرات نفاذة . وتبين عندئذ انها لا تشبه اي شيء ادمي ، ولما لمسها باصبعه ، انكمشت على نفسها ، وهنا قال :

ــ انها دافئة .

وعبثا حاول ان يعرف كنهها ، بعد ان قلبها ، رأسا على عقب ، ولكنهم رأوا على جانب منها بعض شعرات نامية تشبه الشعر الادمي . وعادت سوزي تهمس بفزع :

ــ انها تنبض بالحياة !

ــ نعم

وقال ارثر وهو لا يحول عينيه عن هذه الكتلة المتحركة :

ــ مامعنى هذا ؟!

وقبل ان يجيب الدكتور بورهيت ، سمعوا ذلك الصوت الشاذ الذي يشبه دمدمة حيوان غير معروف ، وكانوا قد نسوا امره امام هذه الاعجوبة الحية ، وهتفت سوزي ، وقد تضاعف فزعها :

ــ اوه ، ارثر ، هلم نخرج من هنا ! انني خائفة مما قد نراه في هذا المكان الرهيب ، ولعل ماسوف نراه يسمم حياتنا ويطرد الكرى عن عيوننا من فرط الفزع .

ونظرت في رجاء واستعطاف الى الدكتور بورهيت الذي كان واقفا

شاحب الوجه ، مندهش السمات ، فقال لها :

ــ وأنا ايضا رأيت ما فيه الكفاية . هلم نخرج .

فقال ارثر بهدوء :

ــ يمكنكما ان تخرجا . فأنا لا ارغمكما على شيء ، ولكنني لن اخرج حتى ارى جميع الغرف في هذا الطابق .

ــ ولكن لنفرض ان اوليفر هادو هنا ، متربص لنا ؟ انك في هذه الحالة تكون داخلا الى المصيدة بقدميك .

ــ انني واثق ان هادو ميت .

ومرة اخرى سمعوا تلك الدمدمة الحيوانية العجيبة فتقدم ارثر الى الغرفة التالية ، وتبعته سوزي وهي مصرة على ان تمضي معه الى اي مكان مهما يكن الخطر المحدق بها ، وكانت هذه الغرفة الثالثة اكثر اتساعا واعلى سقفا ، وكانت تضيئها مصابيح قوية كثيرة ، وتنبعث في جوها رائحة كريهة لاتكاد تطاق ، وتشيع فيها حرارة توشك ان تخنق الانفاس . وكان بها اربعة افران مضرمة النيران ، اذ كانت فتحاتها مرئية ، ووهج الوقود يتألق في داخلها وكانت الاجهزة التي بها تختلف كثيرا عن اجهزة الغرف الاخرى ذلك ان معظم اجهزة هذه الغرفة الثالثة مكونة من اسلاك وصمامات كهربائية ، كما انها احتوت على عدد كبير من الكتب المتناثرة في ارجائها .

ولكن اهم ما لفت انظارهم اربعة احواض من الزجاج ، كبيرة الحجم تشبه ذلك الحوض الزجاجي الموضوع في الغرفة الثانية ، وكانت كلها مغطاة بملاءات كبيرة بيضاء . وتردد ارثر برهة ، لانه كان يعرف ما سوف يجري في هذه الاحواض من مناظر رهيبة ، ولكنه سيطر على اعصابه ، ورفع الغطاء عن الحوض الاول . ولم يلفظ احدهم بكلمة ، وانما راحوا يحملقون في روع وفزع الى كتلة اللحم المكومة في الحوض ، والتي كانت بها سمات بسيطة جدا من جنين ادمي يوشك ان يخرج الى الوجود . ولكن ساقيه كانتا ملتفتين احداهما على الاخرى ، وبلا قدمين او ركبتين ، اما الجذع فكان بلا شكل معين ، وانما كان منتفخ الجوانب ، وفوقه شيء يشبه من بعيد

رأسا ادميا مكسوا بشعر اصفر ، ولكن منظرها كان رهيبا ، فهي بلا اعين او فم او انف ، وانماكتلة مستديرة من اللحم ، ومع ذلك كـانت تتحـرك وتنبض بالحياة .

واسرع ارثر واعاد الغطاء الى الحوض الاول ، ورفعـه عن الحوض الثاني ، حيث شاهدوا ما يشبه المخلوق الادمي ، او الطفل الحديث العهد بالولادة ، ولكنه اقرب ما يكون الى مسـخ رهيب المنظر منـه الى مخلوق بشري ، فقد كانت اطرافه مشوهة ، بعضها قصير وبعضها طويل ، وليـس في رأسه غير فتحة واحدة تتحرك بلا انقطاع .

اما الحوض الثالث ، فكان فيه مخلوق ابشع منظرا ، له ثمانية اطراف ويتفرع من اعلى جذعه رأسان رهيبا المنظر ، كبيرا الحجم فيهمـا الملامـح كاملة ، ولكن بلا تناسق في الحجم ، وكان يحاول ان يرفع نفسه على قوائمه الاربعة ليصل اليهم ، واخفت سوزي وجهها في رعب ، بينما قال الدكتور بورهيت بصوت مرتعد :

ــ هل تعرف معنى هذا ؟ ان معناه انه توصل الى سر الحياة .

فهتف ارثر وهو يعض على نواجذه :

ــ لا ، لا ، مستحيل . بل الاقرب الى العقل والمنطق ان هذا المجنون كان يستغل ثراءه للحصول على اجنة مشوهة ثم حفظها هنـا بوسائـل لانعرف سرها الان . بل اعتقد انه كان يجري بعض التجارب على حيوانات معينـة لكي تلد مثل هذه المخلوقات البشعة ، ولكي يزعم فيما بعد انه استطاع ان يخلق مادة حية من مادة ميتة وتوقف برهة قبل ان يردف قائلا فـي الـم شديد :

ــ ولعله كان يغذي هذه المخلوقات البشعة بدمـاء بشريـة ، بدمـاء مرجريت ، ياللهول ، هلم نشاهد ما في الحوض الرابع .

وما كاد يرفع الغطاء عن الحوض الاخير ، حتى تراجعوا جميعا فـي رعب حقيقي ، ذلك انهم رأوا مخلوقا يشبة القردة ، ولكن بشكل افظـع

وابشع ، يدمدم بأصوات غامضة ، ويحاول ان يقفز بقوائمه الاربعة من الحوض ليصل اليهم ، وهتف ارثر قائلا وهو يعيد الغطاء بسرعة الى مكانه.

ــ هلم نخرج ، لايجب ان نطيل النظر الى هذا الكابوس الحي وهمست سوزي ضارعة :

ــ لنرحل عن هذا القصر المشئوم بسرعة ، ارجوك بحق السماء .

ــ انني لن اغادره حتى اعرف مصير اوليفر هادو .

وتلفت حوله في جنبات الغرفة ، ولكنه لم ير فيها بابا اخر غير الباب الذي دخلوا منه ، وفجاة تقدم خطوتين نحو منضدة مستطيلة فوقها اجهزة وادوات مرتفعة ، ثم ركع على ركبتيه وراءها وهتف قائلا :

ــ هذا هو الشيطان الادمي .

واسرعت سوزي وراءه لترى اوليفر هادو مكوما على نفسه وراء تلك المنضدة ، وكان جثة هامدة ، جاحظ العينين ، تنم ملامحه الملتوية عن اشد حالات الفزع والخوف .

وهمس الدكتور بورهيت :ــ انه مات مختنقا ؟!

واشار ارثر الى العلامات التي تركتها اصابع المنتقم على عنق اوليفر هادو ثم قال :

ــ لقد قلت لكم انني قتلته .

ثم تذكر انه كسر له ذراعه اليمنى اثناء المعركة ، فأخبر بورهيت بالامر ثم فحص ذراع القتيل ، فاذا به يجدها مكسورة فعلا .

وقالت سوزي اخيرا :

ــ الان وقد رأيت كل شيء ، فهلم ننصرف بسرعة .

وبدا ان هذه الكلمات قد اخرجته فجأة من ظلمات سحيقة الى نور الحياة ، فقال باسما :ــ نعم ، يجب ان ننصرف بسرعة .

وخرجوا بسرعة من تلك الغرف الرهيبة حتى وصلوا الى السلم الصغير المفضي الى الطابق الثالث ، وهنا قال ارثر :

ــ اهبطا الى مدخل القصر ، وانتظراني ، لسوف الحق بكما في اســرع وقت ممكن .

فقالت سوزي :ــ ماذا تنوي ان تفعل ؟

ــ سوف تعرفين فيما بعد . افعلي ما اقوله لك .

وما ان وصلت سوزي والدكتور بورهيت الى باب القصر ، حتى سمعا ارثر يهبط بسرعة ، ثم ينضم اليهما قائلا في لهفة :

ــ هلم نجري بعيدا بكل قوانا .

ولم تعرف سوزي السبب،ولكن قلبهاخفق بعنف حين رأت ارثر يمسك بيدها ويجري بها ، والدكتور بورهيت ينطلق وراءهما بكل قواه ، ولــم يتوقف ارثر للراحة الا عندما بلغوا الاشجار الكثيفة بالحديقة الخارجية ، وبعد ان استردوا انفاسهم ، قال ارثر ،

ــ يجب ان نواصل الابتعاد عن القصر بأسرع ما يمكن .

ولما خرجوا من فجوة السياج ، قالت سوزي وهي تلهث :

ــ لقد تعبت جدا ، لم اعد اقوى على مواصلة الجري .

ــ بل يجب ان تجري ، وبعدها ستستريحين كما يحلو لك .

وظل ارثر يجري معهما وهو يتلفت بين الحين والاخر الى القصر،واخيرا قال لهما : الان يمكننا ان نهدىء من سرعتنا .

ورأت سوزي النظرة الباسمة المفعمة بالحنان التي وجهها اليها ، ثــم اذا به يطوقها بذراعه ليساعدها على السير وهو يقول :

ــ أخشى ان اكون قد اجهدتك كثيرا يا حبيبتي !

فأراحت رأسها على صدره ، وشعرت بذراعه الحانية حولها ، انهــا قادرة على مواجهة اي تعب في الحياة .

وقال الدكتور بورهيت وهو يتوقف فجأة :

ــ اسمحا لي ان اشعل سجارة .

فقال ارثر : ــ افعل ما يحلو لك .

وكان في صوته رنين جد مختلف ، انه رنين هادىء ينم عن هذه الروح المرحة المستبشرة التي كان يتميز بها قبل ذلك بشهور . لقد بدأ في تلك اللحظة كانسان تخفف من عبء ثقيل ، ومن مشاعر بغيضة كانت تسود نظرته الى الحياة .

واحست سوزي انها على استعداد لان تنسى الماضي بكل ما فيه ومن فيه من احداث رهيبة ، واشخاص اشرار ، وان تهب نفسها للسعادة التي بدا ان القدر يحتفظ بها لها اخيرا .

وبدؤا يسيرون الهوينا في سكون الليل ، وبين الحين والحين كانوا يشعرون بالبهجة كلما لامست وجوههم الحارة المرهقة نسمات لطاف كانت تهب من المزارع المجاورة ، حاملة معها شذا الازهار ورائحة النبات .

وكان ثمة هدوء جميل يحيط بهم ، ويفعم اجسامهم المجهدة باحساس من الراحة والامن . لقد كان الظلام كثيفا ، ولكنهم كانوا يعرفون ان الفجر وشيك ، ومع الفجر المقبل احست سوزي بأفاويق السعادة والرضا تسري في كيانها .

واخذت حافة الليل في الشرق ترق وتشف وتتحول تدريجيا من السواد الى الزرقة ، وبدت الاشجار تلوح واقفة في قلب الليل كأشباح ذات جمال خاص .

فجأة انشأت الطيور تغرد حولهم في زقزقة جماعية رائعة ، ثم رفرف بلبل محلقا في الهواء طليقا يستقبل موكب النور بالهتاف والتغريد .

ووقفوا اخيرا على ربوة صغيرة .

عندئذ قالت سوزي ، وهي تتنفس بعمق وارتياح :

ــ هلم نقف هنا لنرى موكب الشمس عند ظهورها .

ومرة اخرى وجه اليها ارثر هذه النظرة الباسمة ، وقال بصوت كله الرقة والحنان :

ــ كما تشائين .

ووقف الثلاثة يستنشقون ، بنشوة وعمق ، نسمات الفجر المنعش العذب ، وبدت الارض كلها مُنبسطة عند اقدامهم ، ومكسوة بذلك الغلاف الشفاف الذي يسبق موكب الصباح . وانتشت سوزي بجمال تلك اللحظة، ولكنها لاحظت ان ارثر لا ينظر مثلها ومثل الدكتور بورهيت الى الشرق، وانما راح يركز نظراته على المكان الذي خرجوا منه هاربين . ترى ماذا يريد ان يرى في ظلمات هذا الاتجاه الغربي ؟ واستدارت لترى ، واذا بصيحة تند عن شفتيها ، واذا هي ترى من بعيد وهج النيران يطارد بقايا ظلال الليل .

وتمتمت قائلة : ـ يبدو انه حريق !

ـ انه قصر اوليفر هادو ، يحترق عن اخره .

ويبدو ان سقف القصر انهار في تلك اللحظة ، فاذا ألسنة النيران ترتفع الى عنان السماء ، واذا المنظر يلوح لهم من بعيد كأنه كرنفال اضواء وصواريخ . وظلت النيران مندلعة في لهيب رهيب كأنه من بعيد انعكاسات وحوش خرافية ، واخذت تلتهم غرفة بعد غرفة بسرعة مذهلة .

لقد اصبح القصر في لحظات شعلة من النيران لا يمكن لمخلوق بشري انقاذه منها ، وبعد ساعة او تزيد سيختفي تماما من الوجود بكل ما جرى فيه من جرائم وفظائع وارهاب .

وقالت سوزي بصوت هامس : ـ ارثر ؟ ماذا فعلت ؟!

ولم يجب ، وانما لف ذراعه حول كتفها مرة اخرى ، وجعلها تستدير اليه ، ثم قال :

ـ انظري ، لقد بدأ موكب الشمس يعلن عن ميلاد يوم جديد .

ولم تدر سوزي هل تبكي ام تضحك وهي تشعر بشفتي ارثر على شفتيها !

لقد احست في تلك اللحظة انها تعيش في حلم سعيد ، سعيد ، تتمنى لو انها لا تصحو منه ، مدى الحياة .

تمت

هذا الكتاب

وفيما كان الدكتور المرح يثرثر بالاحاديث ، وقف آرثر ينظر الى مرجريت بوجه يعلوه الشحوب ، وكانت هي ايضا ممتقعة الوجه وهي تنظر اليه ، اما اوليفر هادو فقد ارتسمت على وجهه الضخم ابتسامة عريضة كأنما يستمتع بهذا الموقف المثير . وتقدم من آرثر قائلا في صوت عادي ينم عن الابتهاج :

ـ ان الدكتور بردون صديق قديم لنا ، وفي الواقع انه هو الذي عرفني بزوجتي ، وكثيرا ما كنت اتناقش مع المس بويد في الشؤون الفنية وفي الموضوعات التي تتناول الروح والخلود وما الى ذلك .

وصاح الدكتور اربثنوت مصطنعا خيبة الامل :

ـ ما اسخف هذا ! لقد كنت اريد مفاجأة المس سوزي بويد بواحد من السحرة المصريين ، فاذا بها تعرف كل شيء عنه .

كيف سنجلس ؟

الثمن : ٥٠٠ ق ل.

او ما يعادلها